

أندري كونت سبونفيل
ANDRÉ COMPTE-SPONVILLE

الحياة الإنسانية

LA VIE HUMAINE



ترجمة: يوسف أشلحي

صفحة 7


تمت ترجمة هذا الكتاب ضمن
مبادرة
ترجم
Tarjim Initiative

La vie humaine

André Comte-Sponville

الحياة الإنسانية

أندري كونت سبونفيل

ترجمة: يوسف أشلحي







الكتاب
الحياة الإنسانية

المؤلّف
أندري كونت سبونفيل

الطّبعة الأولى:2022
التّرقيم الدّوليّ
978-603-91820-1-6
رقم الإيداع
1443/8186

E-mail: admin@page-7.com
Website: www.page-7.com
Tel.: (00966)583210696
العنوان : الجبيل ، شارع مشهور
المملكة العربية السعودية

الفهرس

تقديم المترجم 7

كوجيطو الحياة: التفكير في قاع الأنا وإيقاعها في مجرى الحياة 7

تمهيد 19

(I) في البدء 21

(II) المولد 35

(III) الطفل 47

(IV) المراهق 57

(V) أن تحب 67

(VI) باسم الابن 79

(VII) العمل 89

(VIII) معًا 103

(IX) اللذة والألم 115

(X) الديمومة 127

(XI) الموت 137

(XII) الخلود 147



تقديم المترجم[1]

كوجيطو الحياة: التفكير في قاع الأنا وإيقاعها في مجرى الحياة

هل للتفكير الفلسفي أن يعتصم حصريا بالقول الكلي في هكذا شأن أو مسألة، كأننا في تمسك حرفي بقول أرسطي عتيد يقرن المعرفة ويشرطها شرطا بالكلي؟[2] وبه قدّر أن نسهب التفكير في الإنسان من حيث هو ذات معرفية وأخلاقية أو اجتماعية عليها أن تكون على احتذاء دقيق لتصورات معيارية هي بنفسها موضع تفكير مفتوح. فما الحاجة إلى تمرين عقولنا على التفكير في الإنسان خارج اعتياد الفكر الذي دأب على التفكير في الذات من حيث هي ذات عارفة، أو ذا صلة بالحقيقة والحق والخير والسعادة والجمال والنفع...؟ رب مثل هذا السّفر الفكري الماتع الذي نثره الفيلسوف الفرنسي **أندري كومت سبونفيل** (André Compte-Sponville) في كتابه **الحياة**

---

(1) جميع الهوامش في الكتاب من وضع المترجم.

(2) - يفترض أرسطو في مستهل المقالة الأولى من كتاب الميتافيزيقا (مقالة الألف الكبرى) أن الفيلسوف يمتلك المعرفة بالكليات بالقدر الممكن.

-Arsitote, Métaphysique, A, 1, 2, Tome 1, traduction et notes par J. Tricot, Ed Vrin, Paris 1991, P 6.

الإنسانية الذي تولينا تعريبه، يكشف عن تمرين آخر للتفكير خارج أمهات المفاهيم الأنطولوجية والميتافيزيقية والقيمية التي استمسك بها في كلّ استشكال للإنسان استوطن مجرى الفلسفة. يمكن أن نعدّ نظره من باب بسط القول الفلسفي في سيرة الأنا البشرية في الحياة، وهي بذلك ضرب من التفكير الذي يحرص على استقدام ضروب ترجمة النفس البشرية في الحياة إلى ورش التفكير الفلسفي. ولكي لا يكون التفكير الفلسفي غافلا عن الوجوه الدقيقة لتجربة الإنسان وصروفها في مجرى الحياة، فإننا نحسب أن المساهمة الفكرية التي أعرب عنها الفيلسوف سبونفيل في هذا الكتاب، إتماما لعمل من تمرّس على هذا الاعتياد الفكري قبله، تنطوي على لمع فكرية ثاقبة، تضعنا وجها لوجه أمام دقائق إيقاع حياتنا، واضعة كل حقائقها وعوائدها موضع استشكال وتفكيك ومساءلة تستنفر كل ما عهدناه وتغافلنا عنه، أو ما حسبناه أحط شأنا من أن ينال حظوة التفكير.

ورب مثل هذا المسعى الفلسفي الذي ندر الاهتمام به ينغمس في الإيقاع الاعتيادي للحياة، ويصاحب الشأن اليومي بكل تلاوينه وتصاريفه، ويلتقط كل الدقائق والتحولات والتموجات التي تحبل بها الحياة على نحو ما نعيشها ونترجم أنفسنا فيها في أي صورة ومسلك وطريقة وتوقيع يخطّ صحائف الحياة، هو عبارة عن ضرب من "التفكير الحيوي". والمقصود بالتفكير الحيوي عندما تكون إحداثية التفكير منخرطة عن كثب في معترك الحياة منشغلة بهواملها وشواملها وشوائنها، وهذا الضرب من التفكير على نقيض "التفكير الفلسفي العالِم" الذي يخوض في أمهات المسائل الفلسفية وفي أعسر

القضايا وأبعدها عن الشأن العادي، وعن العقل العمومي الذي يستصعب حتى المسائل اللصيقة به القريبة منه، وما بالنا بالمفاهيم والمسائل الرفيعة التي تعشعش في قمم الفكر وترفرف في أبراجه العالية العاتية. فكأن بهذا النهج الفلسفي شاء لنفسه مسلكا بسيطا، لكنه مسلك ليس ما دون الفلسفة، وإنما هو تجربة مغايرة تنتمي إلى رحم التفلسف. فليس تحصر الفلسفة على من يحدّق بعقله في أعالي السماء ويرفرف بعيدًا إلى ما وراء الإحساس والحدس، بل هي في العمق رحلة في الحياة، وحضور ملموس يرتقي بالمعيش اليومي إلى موضوع للتفلسف. وأن نرفع الوجه اليومي للحياة إلى ذروة التفلسف، نحسب أن في هذا التوجّه تكمن ميزة الفلسفة الرّاهنة وتميّزها وإضافتها. فهي بصنيعها هذا تجدّد جلدها وتقطع مع تقليدها العريق، أو هي بالأحرى توسع قعرها وتنمّي حدوساتها الأولى التي كشفت عنها على نحو خجول في مجرى سفرها المديد؛ وبمعنى آخر تذر العكوف في البرج العاجي، لتنزل إلى فلوات الأرض، وتعود إلى معمعة الحياة. والعودة إلى الحياة بكل تفاصيلها ودقائقها، هي تجديد لروح الفلسفة نفسها التي تبرَّأت، في مجملها ولعهود مديدة، من كل ما يمتّ بصلة لكلّ شأن رتيب مجترّ مكرور قائم خارج دائرة ملكوت العقل. لقد ولّى عهد الفصل بين زُبدة النظر الفلسفي وزَبَدِ القول الشائع، وانمحى الفارق بين المفاهيم والمشاغل التي ترقى لمقام النخبة والمسائل والمواضيع التي يوصد باب التفكير إزاءها، أو في أدنى الأحوال يُعهد أمرها إلى معارف وأشكال تعبيرية من الدرجة الثانية. حان الوقت لنعرّف الفلسفة من

جديد، أو نتعرّف عليها معرفة أخرى، ونستعلم عن أدوارها ومهامها، ونجعل لها من الواجب ما لم يكن واجبًا لها من قبل، وأن نستشرف لها أفقًا جديدًا وعهدًا واعدًا ومولودًا معطاء. وليس في هذا دعوة إلى القطع كلية مع نمط التفلسف الذي نذر نفسه حصرًا في مجابهة أمَّهات القضايا الفلسفية في مسائلها النظرية والعملية، والواجب أن نكون خير القائمين على إرث ثقيل وتقليد عتيد، نواصل الدفع به أفقًا ومستقبلًا، لكن علينا في ذات الآن أن نكون على بال، ونحن على تمسّك حرفي بمهمّة الفلسفة الموروثة ورسالتها، نكون كمن يُسهم في تضييق الخناق على رحابة آفاقها، ونقضي على روح التجديد فيها والتنفيس عنها، في سبيل أن تعانق آفاقًا غير معهودة، وتُنبت ثمارًا فكرية في حقول بكرًا لم تطأها إحداثية تفكير قبلًا. ولا يستوي روح التفلسف حق الاستواء إن هو انزوى عن الحياة، فكيف يستوفي طلب الحقّ، والحق من مطالب النظر الفلسفي، إن لم نجعل النظر يخوض غماره في معترك الحياة، ويطيل التفكير والاعتبار فيما يعتمل في صحائف الحياة وما يدوّن فيها من أحداث وأفعال؟ أليس بذلك نكون قد حرمنا التفكير نفسه في تمرين نفسه على استخراج قضايا فكرية ومفاهيم فلسفية كبرى من رحم مسائل بسيطة عارضة لم تكن تستهوي النظر وتحفز على التفلسف؟ ولا نحسب أن الجهد الفكري الذي يفلح في الارتقاء بالإيقاع الاعتيادي للحياة إلى منزلة التفلسف، ويقتدر على تطويع المسائل البسيطة في شاكلة قضايا فلسفية يجد لها خيطًا رشيقًا مع تاريخ الفلسفة، هو صنيع ما دون الفلسفة، بل هو إمكان واعد للتفلسف.

أن نجعل التفكير الفلسفي على ترفّع من الالتفات إلى الجانب المعهود في وجودنا، أليس بذلك نأتي بصنيع يناقض روح الفلسفة ومهمتها؛ أو لسنا نسلّم عادة بأن ميزة النظر الفلسفي عن غيره يكمن رأسًا في أنه من جنس النظر الكلّي الذي لا يدع شأنًا، أيًّا كانت منزلته، إلا وعاهده فلسفيًّا وخّصه باهتمامه الفكري، وإلا لأصبح قاصرًا على أن يبلغ رتبة النظر الشامل المتكامل، فنجعل المهمة لمن دونه من معارف وأشكال تعبيرية تجعلها من حقلها الأنسب والأحق بها نزالًا، ومع ذلك هل يستوي أن تكون منازلة الفلسفة لمختلف شؤون الحياة وشجونها كنزال غيره لها في استكناه عمق الأشياء والنفاذ إلى لبِّها وسبر حقائقها.

ثمة بيننا، فيما يموج في كنف وجودنا العادي، فيما يعتمل من جزئيات تؤثث إيقاع الحياة ووقْعها، ما يستحق منا استدعاء النظر وإعمال التفكير في أدنى بسائط الأمور، وفي أدق وقائع يحبل بها مجرى الحياة. التفلسف ليس مجرد نشوة فكرية تأخذ بلب صاحبه، لتجده أميل إلى التحليق في سموات الفكر، ويصبح عنده التجرّد المطلق من الواقع ديدن تفكيره الذي لا يقلع عنه ولو لحين. فالناظر في سيرة الفلسفة ومسارها لا يجدها على هذه الحال حصرا، أي أنها لم تكن على وضع مترّفع عما يعتمل في صلب الوجود المتحيّز زمانا ومكانا، بقدر ما كانت تضرب بجذرها على الدوام في معمعة الحياة، وتشي صورة وجودها بأنها كانت النابتة الحرفية التي تنتسب إلى زمانها وتعكس روح سياقها، ولطالما كانت المرآة الناصعة التي تقرأ فيها أمارات عصرها وعلامات زمانها. كُتب على الفلسفة منذ استواء

وجودها، بل يمكن القول إِنَّهُ من القوادح التي مكّنت لها أن تترسّخ وتستوي على الصورة التي استوت عليها، أنها آلت على أن تجعل من ذاتها موقفًا ورسالةً ومهمَّةً يقع على عهدتها أن تنهض بها، وتباشر من خلالها حضورها في الوجود.

ألم تكن أفكار سقراط إلا نسخة متولّدة من رحم العقل اليومي، نابعة من تجربة التفلسف التي تضرب بحضورها في واقع الحياة. وهي على هذا الحال، تمثل أنموذجا حيًّا للفلسفة وهي تمشي وتسوح بين عقول الناس، تُلقي بالمسألة أو القضية أو المفهوم سائبًا في متناول كل العقول لتتداعى حوله مناقشة ومماحكة وأخذ وردّ، قبل أن تصيب القناعة النفوس ويأتلف عقل الجميع على الرأي السديد والحكم الصائب والتصور الجامع المانع، أو قد يكون الاختلاف والتعارض سيد الموقف. وحقّ أن يقال عن تجربة التفلسف لدى سقراط، وهي تتميّز عن البناء الفلسفي الذي شيّده أرسطو لاحقًا تميّزًا معتبرًا، أنها تعبّر عن تجربة فلسفية متفرّدة لكونها من طينة **الفلسفة الحيّة** التي تضرب بجذورها في تربة المعيش اليومي. لم تكن من صنف النسخة الفلسفية العالمة أو العارفة التي تنبع من أحشاء عقل غارق في التأمل المجرّد، وهذا ما يصدق عن البنيان الفلسفي الذي أثّثه أرسطو في مجمله إن استثنينا بعضا من مشاغله الفلسفية العملية، بل هي من جنس الفلسفة التي تبني تصورها في ضوء خبرات اليومي واستقراء المعطى المبدّد في الوجود العملي. وإن كان هذا هو الكنه الذي يميّز تجربة التفلسف لدى سقراط، أو ليس أحقّ أن يقال عن هذه التجربة الفلسفية بأنها تعبّر عن روح الفلسفة

المشّائية التي هي على عروة وثقى بالشأن اليومي وشجون الحياة، تمييزًا لها عن كل خيار فلسفي، كما هو الحال للخيار الأرسطي، ينبعُ ويقبع في كهوف العقول؟

ألم تكن ميزة فلسفات كل من **نيقولا مَكيافيلي** و**كارل ماركس** و**فريدريش نيتشه** وتميّزها عن غيرها، أنها تعتبر الصدى الحي للواقع والمرآة الصافية التي تعكس حقيقة الأشياء: ألم يكن التميّز الواقعي الذي طبع فلسفة السياسية لدى **مكيافيلي** كونها أفلحت في وضع الأصبع على مكامن الخلل الذي يتمثل في الفجوة الواقعة بين الأخلاق والسياسة، وأن واقع هذه الأخيرة هو براء مما أحيط بها من مُثُل لا محل لها من الوجود. ألم تكن فلسفة **كارل ماركس** والعقيدة الماركسية بعامة سوى ضرب من الاحتجاج الفلسفي الواقعي على قصور التفكير الفلسفي في الالتفات إلى الواقع المرير الذي تُمرّغ فيه كينونة الإنسان وتهدر فيه إنسانيته. وليت الأمر يقتصر على ضياع معنى الإنسان وحده، بل ضياع معنى العالم بأكمله؛ فكيف بالفلسفة أن تضرب صفحًا عن كل ما يموج في الواقع وتتغاضى الطرف عن النبض الحيوي الذي تحبل به الحياة، وتتناسى الإنسان هنا، في حقيقته المعطاة، لترفرف بعيدا للبحث عن مقام الإنسان في جزر السعادة التي يصطنعها وحي العقل؟ كان على الفلسفة أن تتقن وببساطة لغة الواقع، أن تكشف منطق الواقع، لا أن تعتصر الواقع كله لتختزله في مجرد «مقولات منطقيّة» جوفاء[3]. وما كان لمقوّضي الأوهام ورادم

---

(3) - عن هذا الاختزال يفصح ماركس: "كل ما يوجد، كل ما يعيش على الأرض وتحت الماء، يمكن –بقوة التجريد- أن يختزل إلى مقولة منطقية، إذا كان يمكن بهذه الطريقة

الأصنام الفيلسوف نيتشه، وتفكيره معقود على ردم الهوة السحيقة بين الأخلاق والحياة، إلا أن يبدّد الحُجب الكثيفة التي حجبت حقيقة الحياة بطبقات سميكة من المُثل والقيم التي لم يكن لها أدنى ذرة من المصداقية، بقدر ما أنها لم تكفّ عن «تجريد الواقع من قيمته ومن معناه ومن حقيقته»[4]. ومثل هذا المسلك من التفلسف لم يكن أمينًا مع نفسه ولا هو تمثّل لنا الواقع تمثّلا أمينًا صادقًا، بقدر ما أتحفنا بوعود من الخلاص وأغدق علينا بمُثُل تبشّر بالسكينة والخير المطلقة والسعادة الأبدية، والحال أن «الفلسفة كما كنت دومًا أفهمها وأعيشها، هي الحياة طوعًا في الجليد وفوق الجبال الشاهقة؛ البحث عن كل ما هو غريب وإشكالي في الوجود، وعن كل ما ظل إلى حد الآن منبوذًا من قبل الأخلاق»[5]، وبعبارة أخرى المساهمة في إضاءة الوجه الحقيقي للحياة، تلك الحقيقة التي تم إضمارها وتعليبها وتغييبها، هي التي وقعناها ونوقّع عليها بعثراتها وبمثالبها وبندوبها وبقبحها، وهي في كل الأحوال أحوال حقّة تنتمي إلى صلب الحياة وحقيقتها وليس على العقل أن يتحرج من البوح بها والكشف عنها.

لم يكن كنه التفلسف ومراده موقوتًا على حقيقة بعينها، بشكل يضيّق الأفق الرحب للفلسفة كما للوجود، بل الواجب الروحي

أن يغرق العالم الواقعي بأسره في عالم من التجريدات، في عالم المقولات المنطقية". كارل ماركس، بؤس الفلسفة، رد على فلسفة البؤس لبرودون، ط 4، ترجمة محمد مستجير مصطفى، منشورات دار الفارابي-التنوير، بيروت 2010، صص 161-162.

(4) - فريدريش نيتشه، هذا هو الإنسان، ط 2، ترجمة علي مصباح، منشورات الجمل، بيروت 2006، ص 8.

(5) - المصدر نفسه، ص 9.

الذي يلازم الفلسفة منذ قيامها لا يحيد عن مطلب منازلة الحق ونشدان الحقيقة التي تساكن الأشياء والموجودات بعامة. وأن نجعل الظفر بالحق هو ديْدَن تفكيرنا، أليس في ذلك تعبير عن إرادة استكناه معنى الأشياء والاستعلام عن حقائقها. والمعنى هو التمظهر الحي والنشيط لفعل التفلسف، والتلازم الوجودي هو التعبير الحيوي عن علاقة الفلسفة بالمعنى. وباقتفاء آثار المعنى المبدّد في كل ركن من أركان الوجود وتخومه، ما يسعف إحداثية التّفلسف أن تشقّ لها أفقًا أوسع وأن تطأ مجالات بكرًا لم يكن لها نزال فيها قبلا. فالمعنى لم يكن من نصيب الكليات فقط، بل هو أيضا على صلة حميمةٍ بالأكوان الجزئية[6]. وتوسيع أفق الفلسفة من خلال تمديد رقعة المعنى، هو في الحقيقة يعبّر عن طموح يتعدَّى الانشغال الذي خاضت غماره الفلسفة التحليلية بعامة، والمنعطف اللغوي المعاصر بخاصة، وهو الاهتمام الذي آثر أن ينحصر إشكاله في استشفاف المعنى والدلالة ضمن أقانيم اللغة. وما كان لمثل هذا المعنى المحصور أن يشق بالفلسفة ويعبر بها نحو أفق أرحب، نحو أبعد من المعنى الذي يكشف عن العقل العارف، وأوسع من الحقيقة التي تلازم العلوم

(6) - في لزوم العودة بالمعني إلى جملة من الحقائق والواقع التي تتموضع في المكان وتتناثر فيه، ينكشف الاسهام الفلسفي المتميّز الذي وقع الفيلسوف لودفيغ فتغنشتاين، وبه تقّرر المنعطف اللغوي الذي اعترى مباحث الفلسفة التحليلية المعاصرة. لم يعد التصور الميتافيزيقي للعالم يسعف على استكناه المعنى الحقيقي للعالم، فالعالم كما يقول " هو جملة ما يقع" (Die Welt ist alles, was der Fall ist)، أو هو عبارة عن "جملة الوقائع وليس الأشياء" (Die Welt ist die Gesamtheit der Tatsachen nicht der Dinge).

-Ludwig Wittgenstein, Tractatus logico-philosophicus, 8. Auflage, Suhrkamp Verlag, Frankfurt am Main 1971, S 11.

أو أكوانا محددة، إلى حيث تتعقب المعنى في تبدّده وتناثره؛ ونعني بذلك معنى جملة الأشياء والذوات، معنى أن نوجد وما يوجد في كل تبديّاته وتجلّياته وفي مجمل لحظاته ومنعطفاته.

ما كان من الإشارات والتلويحات السابقة هو أن ننفي نفيًا مطلقًا اهتمام التفكير الفلسفي في مجراه المديد بشؤون العقل اليومي وما ينصرف في مجاري الحياة، بقدر ما كان غرضنا القول إنَّ الاهتمام بالمظاهر الجزئية وانتشال ما هو عابر والتقاط ما هو مهمل لم يكن ذا أهمية قصوى إذا ما قورن بأمهات المسائل الفلسفية التي اعترت ناصية التفكير الفلسفي في أطوارها وأدوارها الكبرى. ونحسب أنَّ تفرّد الفكر الفلسفي راهنًا، في شطر كبير من اهتماماته الفكرية، يكمن أساسًا في تسديد إحداثية التفلسف جهة مختلف بنى الوجود المألوفة والعابرة التي تعطى قبالتنا وتكتنف الإيقاع الاعتيادي لوجودنا. وحينما يكون التفكير أحرص على أن يتحرك على أرضية الكلي والجزئي، ويقتفي أمهات مسائل الفكر وأجلّها موضوعا دون أن يتغافل عن ما هو عابر ومنفرد ودقيق، ويعرف كيف يقتحم قلاع الوجود الذي ينجم عنا على نحو اعتيادي، فإن في ذلك تعبيرا عن القوة الضاربة للعقل وآية على وجه اكتمال فعل التفلسف، وأن العقل أرحب وأفسح أن يُضيّق استعمالا فيضيق معه المعنى وتحجب حقائق الوجود في آياته الكبرى وعلاماته الصغرى.

والناظر في كتاب الفيلسوف **أندري كونت سبونفيل** -الحياة الإنسانية- الذي تولينا تعريبه، يكشف على نحو ناصع على مثل هذا

الغمار الفلسفي الذي يجعل من استشكال الوجود الاعتيادي نُصب اهتمامه ومدار تفكيره. لم ينعقد فحوى الكتاب على خوض نزال فلسفي عميق يغوص في أمهات المسائل الأنطولوجية أو الميتافيزيقية، وإنما انكشف في هيئة سفر فلسفي يمخر أمواج الحياة، وتمظهَرَ على شاكلة عبور فكري يرتحل بين حلقات الحياة الأساسية ومحطاتها التي تشكّل العقد الفريد والفردي للإنسان في الحياة وسيرته في الوجود. هو تمرين فلسفي على سردية فلسفية كلية تختلف جذريا عن السردية الأدبية التي دأبت على تخييل الأنا في صيغة مشخّصة، تشخص مصير الفرد وتؤرخ لحيوات أشخاص ضمن تجربة موقعة في مجرى الحياة، بل إن السردية الفلسفية التي يخوض سبونفيل معتركها في هذا الكتاب تشرئب إلى كتابة سيرة موقعة باسم الإنسانية قاطبة، سيرة يحق فيها الوصف الذي أطلقه نيتشه على كتابه هكذا تكلم زراديشت: «كتاب للكل ولا لأحد». كتاب يرمق فيه كل واحد منا كيف يعبر مجرى الحياة، أو بالأحرى كيف تعبر عبره الحياة. ومثل ما دأب التفكير الفلسفي على أن يتمعّن في سيرة الإنسان من حيث هي تجربة كلية مقذوفة في الحياة، مثل يمكن أن نمرّن التفكير الفلسفي على أن يتأمل في سيرة الوجود البشري من حيث هو حلقات منفصلة ومتصلة في الآن نفسه، لكل حلقة نكهتها وعمقها وإضافتها ولغتها وتجربتها وحكمتها التي يقتضي أن نستشفّها ونكشف عنها. ورب سعي فكري وراء المعنى الكلي للإنسان لن يسهم في استشفاف العناصر الدقيقة وتفاعل حي مشهود للحياة وهي تتحيّز وتنعطي في لحظة وجودية عابرة، لهذا

نحسب أن سبونفيل أفلح في هذا السفر الفلسفي الذي يتنقّل بين مختلف منازل الحياة البشرية أن يستكشف معنى كل منزلة على حدة، وأن يُخلخل الجانب البديهي بشأن كل حلقة من الحلقات التي تمثل ضميمة الحياة. قد تشاء رغبة الأديب بعد مسيرة عطاء أدبي حافل أن يؤرخ لنفسه أو لغيره، وقد يحبذ صفوة من المفكرين والفلاسفة، وهذا تقليد تواتر لدى المعاصرين، أن يشاطرونا بقبس من غمارهم الفكري والمهني، لكن أن يهتدي فيلسوف إلى تدوين سردية فلسفية تتكلم عن سيرة ما بعد الفرد إلى التعبير عن سيرة النوع البشري تأملا وتفكيكا، لهو جهد فلسفي يستوجب منا كل التقدير والالتفات.

يوسف أشلحي

أستاذ الفلسفة الحديثة والمعاصرة/ جامعة محمد الأول. المغرب

تمهيد

يعتبر هذا العمل المشترك[7]، ثمرة فكرة منّ علينا بها الناشر، مع أنّنا نعيش لسنوات معًا. ثمة ما لا يُحصى من الفجوات التي يقع على كاهلنا واجب ردم الهوة القائمة بينها؛ سواء بين الفنِّ والفلسفة، وبين الأشدّ قربًا والأبعد مسافة، وبين ما هو حميمي وما هو عمومي. يا لها من ضرورة سعيدة حينما يطيب للحياة أن تغذّي عملًا ما، مع أنه ليس ثمّة سبب وجيه يدعوها لتُقدِم على هذا الصنيع.

ما إن اقْتُرِحت الفكرة، إلا وجدنا أنفسنا منساقين إليها، كأنها البداهة التي لا تقبل أدنى تردّد. وما كان مرادنا من وراء ذلك الظفرُ بمتعة مشكوك في أمرها، بمجرد أن نتولى سرد فصل من فصول حياتنا، مع أن هذا الأمر -كما سنرى لاحقا- لم يكن في الحسبان قط، وإنما القصد أن نمضي معًا، كل بما أوتي من وسيلة، نحو إدراك نفس

(7) - قصد الفيلسوف أندري كونت- سبونفيل بالعمل المشترك مع الرسامة سيلفي تيبر، ليس هو التأليف المشترك بالمعنى المعتاد، وإنما هو تأليف من نوع آخر، تحضر فيه الإشارة إلى جانب العبارة، أو بالأحرى حينما توطّئ اللوحة للكتابة، وتكشف فيه الكتابة عن مكنون اللوحة من دون الانشغال بتأويل عين العمل الفني؛ والإشارة هنا تشير إلى الرسومات الفنية التي وشّحت جملة الفصول الإثني عشر التي خطها الفيلسوف سبونفيل في هذا الكتاب.

الحقيقة التي لا يمكن أن تكون لها سوى صبغة عالمية، أو نحو نفس الطموح الذي نتقاسم همّه- والأمر لا يعدو استكناه حقيقة الإنسانية، والطموح نحو التعبير عنها وإظهارها كما هي، أو كما تبدو لنا، كما نعتقد أننا خبرنا أمرها أو كان لنا شعور بها. وهذا ما يدفع الرسّام ليلامس عمق الشخصية الإنسانية، وهو موضوعه المفضل، مع إبعاد الفيلسوف، قدر الإمكان، عن ملازمة التجريد والتأمل. فلسفة؟ أدب؟ هذه ليست سوى محض كلمات. الحقيقة والحياة على غاية من الأهمية بالنسبة إلينا جميعًا.

مع أن هذا الكتاب اكتسى حلة العمل المشترك، لكن نصيب كل واحد منا فيه تم بشكل منفرد. فرسومات **سيلفي تيبر** (Sylvie Thybert) ليس غرضها توضيح نصوصي، كما ليس من غرض النصوص التي تخصّني أن تُعنى بالتعليق على رسوماتها. بل نحن نتعامل، بكل بساطة، مع الموضوعات نفسها، والتي تولَّينا اختيارها على توافق بيننا، وذلك لأنها تبدو بالنسبة إلينا الأكثر حسما من الناحية الإنسانية. من شأن البعض الآخر، كما هو معلوم، أن يكون خياره غير هذا الخيار. هذا هو نصيب البشرية كما هي مشخصة في كل واحد منَّا: يمكن للكوني أن يُظهر نفسه، ولو في صيغة الزوجين، بشكل منفرد.

(I)

في البدء





في البدء

قبل الإنسان، أعني قبل النوع البشري، هناك الأرض. وقبل الأرض، وجد الكون. وماذا قبل الكون؟ لا علم لنا بالأمر، وليس بإمكاننا أن نعلم. ليس بإمكان الانفجار العظيم (Big-Bang)[8] أن يفسِّر أي شيء، لأنه سيكون علينا تفسير هذا الانفجار العظيم. ولكن لا يمكن تفسيره إلا بشيء آخر يفترض أنه سبقه، وهو بدوره يجب أن نلتمس له تفسيرًا... وكيف إذن، إن لم يكن بشيء آخر يسبقه، ويتطلبّ منا تفسيره؟ هي سلسلة من الأسباب، بطبيعتها غير قابلة للتفسير. أو أن هذه السلسلة متناهية، والتي يمكن أن تلتمس لها البداية بشيء ما غير قابل للتفسير (بداية مطلقة، لا شيء يسبقها: حدث من غير سبب). أو أنها غير متناهية، ومن ثمة لا يمكن تفسيرها تفسيرًا شاملًا- لأنَّه ليس ثمة أي سبب سابق وفق التحديد. ادعى **لا يبنيتس** (Leibniz)[9]، شأن العديدين، عبر هذا

(8) - تعتبر من أبرز النظريات التي شغلت الفيزيائيين المعاصرين في ظل اهتمامهم بأصل الكون ونشأته. وقد شرعت معالم هذه النظرية في التبلور منذ عشرينات القرن الماضي مع ألكسندر فريدمان وجورج لوماتر وإدوين هابل وهم يبلورون نظرية تمدد الكون بناء على نظرية النسبية. وحسب تقديرات هذه النظريات، فإن أصل نشأة الكون يعود إلى 13.8 مليار سنة خلت.

(9) - غوتفيرد فيلهلم لايبنيتس (Gottfried Wilhelm Leibniz)، فيلسوف ورياضي ومنطقي ورجل قانون ألماني (1946-1716)، يعتبر من أبرز أقطاب التوجه العقلاني في

الطريق، إثبات وجود الله. استوى أن يكون أي شيء، على سبيل المثال العالم أو الأنا. قد لا يكون موجودا (له وجود عارض). وبما أنه يتعين أن نلتمس سببًا وجيهًا لوجوده، علينا أن نبحث عن شيء آخر. وهل من شأن هذا أيضا أن يكون وجوده وجودًا عرضيًّا؟ يتوجب تفسيره من قبل شيء آخر، وهلمّ جرّا... «فما كان لنا أن نمضي قدمًا» على حد تعبير لايبنيتس. ما علينا سوى أن ننتهك مبادئ السببية («لا شيء يوجد من لا شيء»)، ومبدأ السبب الكافي (لا يوجد شيء لا يمكن تفسيره، على الأقل من حيث القاعدة)، أو ننزلق مرة أخرى في انحدار لا قعر له، لا يفسر أي شيء ويجعل كل شيء غير قابل للتفسير. المحرّك الأوّل[10]، كما قال بذلك أرسطو: لا محالة من التوقف عند موضع (مكان) ما. لكن أين؟ الأمر غير منوط بسلسلة العلل العرضية- بما أن كل واحد منها في حاجة إلى علة تبررها. يمكن أن نتوقف حينما ندرك العلة الضرورية، وهي التي يستحيل أن تكون غير موجودة، والتي يفترض أن تكون أزلية وعلة ذاتها: الله.

هذا هو، وباختصار شديد، الدليل على الوجود العرضي للعالم (ontingentia mundi) في صيغته اللايبنيتسية. والسلسلة الكاملة من العلل العرضية هي بحاجة بدورها لعلة، والتي لا توجد سوى في موضع خارج عن هذه السلسلة. ولذلك فهي متعالية. لماذا العالم؟

الفلسفة الحديثة إلى جانب ديكارت وسبينوزا؛ ففضلا عن إسهامه الفلسفي الذي عرف باسم المونودولوجيا، فإن له إسهام متميز في المجال الرياضي (حساب التفاضل والتكامل)، وفي المنطق (مبدأ السبب الكافي)، والدين (الثيوديسا).

(10) *Anankè sthènai*

هل لأن الله هو مرتّب العلل. لماذا الله؟ هل لأن العالم هو مرّتب الأسباب. ولكن ما الذي يثبت لنا أن ثمة نظامًا وأن الأسباب هي أسباب وجيهة؟

قد نلتمس عذرًا مسبقًا إن كان منطلقنا على مستوى تجريدي عال. البداية تفترض دائما هذا الفصل (التجريد، الفصل). أن ندعها لشأنها. كأن هذا «الدليل» لا يثبت شيئًا، وهذا ما أدركه باسكال (Pascal)[11] سابقًا، وعمل هيوم (Hume)[12] أو كانط (Kant)[13] على إظهاره، وهذا ما لا نريد أن نسهب في الحديث عنه. كيف يُفسّر الوجود، بما أن كل تفسير يفترض نفس الأمر؟ كيف يبرهن عليه، بما أن كلّ برهنة عليه لا تحسم أمره؟ فالزعم الذي يروم إثبات وجود الله من خلال الوجود العرضي للعالم، يعني الرغبة في المرور من المفهوم (مفهوم العلة الضرورية) إلى الوجود (وجود الله)،

---

(11) - بليز باسكال (Blaise Pascal) فيلسوف وعالم فيزيائي ورياضي فرنسي (1623-1662). وإن كان قد عرف في مجال الفلسفة بكتاب التأملات، فإن أعماله لا تقل براعة في مجال الرياضيات (نظرية الاحتمالات)، وفضله كذلك لا يغفل في مجال العلوم التطبيقية، فإليه يعزى فضل اختراع الآلة الحاسبة.

(12) - دافيد هيوم (David Hume)، فيلسوف مؤرخ واقتصادي اسكتلندي (1711-1776)، يعتبر أحد أقطاب التوجه التجريبي الذي طبع توجه الفلسفة الحديثة؛ وذلك ما تشي به أعماله في نظرية المعرفة وفلسفة الأخلاق والدين. تأثير فلسفته امتد خارج الفلسفة الأنجلوسكسونية، وفضله على نظرية المعرفة لدى الفيلسوف كانط مثال شاهد على ذلك.

(13) -إيمانويل كانط (Immanuel Kant)، فيلسوف ألماني (1724-1804)، يعتبر من أشهر وأبرز من رسخ دعائم المثالية المتعالية إلى جانب كل من فيشته وشلينغ وهيغل، وقد عرف بثلاثيته النقدية التي انصبت حول نظرية المعرفة (نقد العقل المحض)، والأخلاق (نقد العقل العملي)، والجماليات (نقد ملكة الحكم)، فضلا عن إسهامه في فلسفة الدين (الدين في حدود العقل المحض)، وفلسفة السياسة (نحو السلام الأبدي، نظرية الحق)، والأنثروبولوجيا الفلسفية.

وهذا ما ليس بمقدور أحد القيام به. فضلا عن ذلك، فإنه حتى لو استطاع المرء إثبات أن الوجود البسيط لشيء ما يقتضي ضمنًا وجود كائن ضروري ضرورة مطلقة، فإن هذا لا يثبت أن هذا الكائن هو الله: يمكن أن تكون الطبيعة نفسها، كما أراد لها سبينوزا (Spinoza)[14] أن تكون، وقد يكون الوجود عينه كما أراده بارمنيدس (Parménide)[15]؛ فليس هنالك ما قد يدعي أنه وُهب نصيبًا من الوعي، ولا أنه القوي المكين، ولا أنه يغمرنا حبًّا أو له بالغ الاهتمام بنا... كل هذا لا يكتسي أهمية كبيرة. كل ما أردنا إظهاره، هو أنه ليس لنا علم بشأن ما كان يوجد قبل الكون، وليس بمقدورنا أن نعلم شيئًا، وأنَّ المؤمنين يجهلون أمره كما هو حال الملحدين أيضًا. فالحقيقة لا تخص شخصًا بعينه، ولا السر أيضًا موكول حصرًا بأحد من الخلق.

---

(14) - باروخ سينوزا، فيلسوف هولندي (1632- 1677)، يعتبر من أقطاب المدرسة العقلانية إلى جانب الأعمال التي قدمها على نحو مزامن ديكارت ولايبنيتس. ولا يخفى تأثير التصور الذي قدمه في كتاب الأخلاق (وحدة الوجود) على عدد من الفلاسفة الذين جاءوا بعده؛ وبالأخص لدى الفلاسفة الألمان مثل لسينغ وياكوبي وموسى ميندلسون، ولاحقا شلينغ وهيجل. دون أن نغفل جهده ضمن نظرية المعرفة (رسالة في إصلاح العقل)، وكذلك فضله في ابتداع منهج جديد يسعف على تحري حقيقة المجرى التاريخي للتجربة الدينية، وكذلك في انتصاره لقيم الحرية والتعاقد السياسي (وكل ذلك أسهب في الحديث عنه في كتابه اللاهوت والسياسة).

(15) - يعتبر بارمنيدس الأيلي من الحكماء الإغريق، ولد في نهاية القرن السادس وتوفي في أواسط القرن الخامس قبل الميلاد. وقد خلف تصورات فلسفية في الطبيعة على شكل كتابة شذرية-شعرية، وخص أفلاطون كتابا عنونه باسمه (محاورة بارمنيدس)، ليعيد سؤال الوجود إلى دائرة النقاش الفلسفي. ويعتبر تصوره الفلسفي نقيض توجه هيراقليطس، فهو يقول بمبدأ الثبات (الوجود موجود، واللاوجود غير موجود)، بينما هيراقليطس يقول بمبدأ التحول والصيرورة.

لماذا يوجد شيء بدلا من لا شيء؟ هذا هو السؤال الجسيم الذي طرحه لايبنيتس، وهو بالأحرى السؤال الكبير الذي يخص الإنسان والعالم (من حيث هو سؤال الإنسان عن العالم، وعن نفسه) الذي سيظل بالنسبة إلينا -على الأقل طالما نحن في هذا العالم- من دون إجابة. يُلوّح مارسيل غونش (Marcel Conche)[16] معترضًا علينا، بما أن السؤال في تقديره لا معنى له، بما أن الوجود خالد. بيد أن الوجود الخالد ليس بحاجة إلى تفسير أقل من البقية، وليس له أن يتولى الأمر بنفسه. إذا كان الوجود خالدا (إذا افترضنا وجود شيء ما دائما)، فليس ثمة حاجة داعية للبحث عن أصله، وعلته أو بدايته. لكن هذا ليس كافيا لإعطاء السبب. يستحسن أن يكون إذن بغير حاجة إلى سبب ما، أو لسبب آخر غير نفسه- وهذا أمر غير معقول، أو غير مفهوم. ليس من عادة الميتافيزيقيين أن يقفلوا مدبرين عن المسائل الملغزة، كما هو حال الفيزيائيين واللاهوتيين. لماذا الانفجار الكبير بدلا من لا شيء؟ لماذا الله بدلا من لا شيء؟ لماذا كل شيء بدلا من لا شيء؟ فالوجود لغز، والكون لغز، وهو الذي يشتمل على كل ما سواه، والوحيد الذي لربما لا يتضمّن حلًّا.

قبل الإنسان وجد العالم، ومعه لغزه. نوجد في الداخل: في قلب الوجود، في قلب اللغز- في قلب كل شيء. بالتأكيد ليس في مركز الكون، حيث لا شيء يقطع الشك باليقين أن المركز واحد (القول

(16) - مارسيل غونش فيلسوف فرنسي معاصر (1922)، يعتبر من أبرز الفلاسفة الذين انشغلوا بالميتافيزيقا والفلسفة القديمة، وله كذلك إسهامات في مجال فلسفة الأخلاق، وبعض من الإسهامات في مجال الأدب.

بأن الكون لا متناهٍ يتناقض مع فكرة المركز)، لكننا نوجد في ضيافته، وهو المحاط من جميع الجوانب من قبل ما هو عليه أو بما يشتمل عليه (من مليارات المجرات، وكل منها يتكون من مليارات النجوم والنظم الشمسية)، ولكننا غير قادرين على الخروج منه على قيد الحياة، أو حتى الخروج منه على الإطلاق... الجسم شيء من أشياء العالم. وهو كذلك فكرة – بما أنه يعتبر موضع تفكير الشخص وجزء من ذاكرته-. أو إن شئنا القول إنه يمثل موضع سجناء المحايثة؟ ولكنه سجن فقط في حالة افترضنا وجود شيء آخر (مفارق)، وهو ما لا يعرفه أحد. أفلح باسكال في التعبير عن هذا الأمر بشكل رائع: «عندما أتدبر في المدة الضئيلة من حياتي التي تلقّفتها أصلا الأبدية في إدبارها وإقبالها، وفي الحيّز المحدود الذي نشغله، وحتى التي تتراءى لنا سابحة في مساحة هائلة لا متناهية والتي نجهلها وتجهلنا، فإنه يتملّكنا الخوف والدهشة وأنا أجد نفسي هنا وليس هناك؛ فليس ثمة سبب مقنع لماذا أُوجَدُ هنا وليس هناك، لماذا الآن عوض ذاك الحين. من جعلني هنا؟ بأمر ورعاية من كان هذا المكان وهذا الزمان رهن طوعي ». لا نمتلك إجابة، ولا شيء قابل أن يثبت حتى لو كانت ثمة إجابة. الإله سيكون مجرد صدفة واحدة أخرى، صدفة من إله واحد على الأقل. لغز الوجود الذي لا يمكن توضيحه. فهو النور عينه.

بما أنه ثمة تاريخ: تاريخ العالم، تاريخ الحياة، تاريخ البشرية... حدث معي، عندما كنت أدرس في سنتي الأخيرة من الثانوية، أن بادرت إلى رسم خط على السبورة. خط أفقي طويل، مستقيم قدر

المستطاع، ممتد على طول امتداد اللوحة. في أقصى اليمين: نوجد هنا (الآن). على بعد بضعة سنتيمترات نحو اليسار: الحرب العالمية الثانية؛ ثم على بُعد بضعة سنتيمترات أكثر من ذلك، نجد الحرب العالمية الأولى... وتابعت مع احترام النِّسب ما أمكن: هنا الثورة الفرنسية؛ وهناك اختراع الطباعة، ثم عهد شارلمان[17] (le règne de Charlemagn)، ثم سقوط الإمبراطورية الرومانية، ثم يوليوس قيصر (Jules César)[18]، ثم قرن بيريكليس (Périclès)[19]... بالكاد بلغنا منتصف الخط الذي رسمته. اختراع الكتابة؟ كان ذلك قبل حوالي خمسة آلاف سنة: ها نحن في أقصى يسار اللوحة. مددت بعد ذلك الخط على الحائط: عصور ما قبل التاريخ... هنا، تقريبا، العصر البرونزي، هنالك تقع ثورة العصر الحجري الحديث، قبل حوالي عشرة آلاف سنة... انتهى الجدار عند هذا الحد. لقد تأتّى لنا أن نشير من خلال النافذة إلى الميدان، الشارع، المدينة... العصر الحجري القديم؟ قد يبدأ هذا أو بالأحرى قد ينتهي، إذا عدنا بالزمن إلى الوراء، في الفناء. ظهور الإنسان العاقل[20]؟ في مكان ما هنالك، وعلى بعد مائة أو مائتي متر، حيث الجانب الآخر من الشارع... نجد

---

(17) - نسبة إلى ملك شارلمان (742-814م) الملقب بشارل الأول أو العظيم، مؤسس الإمبراطورية الكارولونجية، وإليه يعزى فضل توحيد أوربا الغربية بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية.

(18) -غايوس يوليوس قيصر (**Jules César**)، رجل دولة وجنرال وكاتب روماني((100-44 ق.م)، توج حاكما على الإمبراطورية الرومانية، بعد أن حوّرها عن النهج الجمهوري وجعل منها امبراطورية.

(19) -حاكم وخطيب وسياسي إغريقي مشهور (495-429 ق.م)، كان مشرفا على مدينة أثينا وحاكما علها من 460 ق.م إلى حين وفاته

(20) - Homo sapiens

الإنسان المنتصب[21] والإنسان العارف[22]؟ على بعد كيلومترين أو ثلاثة نجد النماذج الأولى من أشباه البشر[23]؟ حوالي ستة كيلومترات نكون أمام فصيلة الرئيسيات[24].

نصادف على مسافة بعد مائتي كيلومتر فصيلة الثدييات الأولى؟ ظهور الحياة على وجه الأرض؟ هي أبعد من ذلك بكثير: أكثر من ثلاثة مليارات سنة، بل قُل أربعة، إذا كان الأمر يتعلق بمكان غير هذا المكان، كأن يكون موضع القسم هو الغرب، في وسط المحيط الأطلسي. وماذا عن تشكل المنظومة الشمسية؟ خمسة مليارات من السنين: بذلك نكون قد دنونا من السواحل الأمريكية. الانفجار العظيم؟ يبدو أنه وقع خلال اثني عشر أو خمسة عشر مليار سنة خلت: نحن هنا في المحيط الهادي، رغم أننا توجهنا غربا، ليس على مسافة بعيدة من اليابان أو بحر الصين... قبل الانفجار العظيم؟ كنت أظهرت الأفق، السماء واللامتناهي: نحن لا نعرف، وحتى إن كان ثمة قبل وبدء! فقفلت عائدًا جهة أقصى يمين اللوحة، على بعد حوالي أربعة أو خمسة سنتيمترات تفصلنا عن معتقل أوشفيتز (Auschwitz)[25] وهيروشيما (Hiroshima)[26]... وجهت

---

(21) -Homos erectus

(22) -Homo Habilis

(23) - Les premiers hominidés

(24) - Les premiers primates

(25) - هو معسكر بني من قبل النظام النازي في بولندا، وقد تضمن ثلاثة معسكرات رئيسية و45 معسكرا فرعيا، مخصصا لتنفيذ أعمال الاعتقال والإبادة الجماعية.

(26) - مدينة يابانية تقع في جزيرة "هونشو"، واشتهرت خلال نهاية الحرب العالمية الثانية، حيث كانت أول مدينة تلقى عليها القنبلة النووية (1945).

إصبعي نحو منتصف هذا الجزء الضئيل: لقد ولدت هنا، كما نطقت نفسي، لكنك ما كنت لتكون هنا بمعزل عما كان.

قبل وجود الإنسان وُجد التاريخ: تاريخ العالم، تاريخ الحياة، تاريخ البشرية. الجمع يسبق المفرد ويفترض وجوده، الأنواع تسبق الفرد، مثلما هي مسبوقة بأنواع أخرى. هذه النسخة التي نحن عليها الأقرب شبها بالقدرة العليا، تجعلنا أقرب من حبل الوريد لفصيلة الشمبانزي والغوريلا (بما أننا الأقرب إليهم، حَسَبَ ما يقوله علماء الوراثة، فإن هذه القردة الإفريقية العليا نفسها هي على قرابة شديدة من أبناء عمومتها الأسيوية مثل **الأوراجوتان** (orangs-outans) **والغيبونز** (gibbons): ما يقرب 99 ٪ مما ورثناه من الجينات مطابق لما هو موجود عند الشمبانزي، وهو الأمر الذي يفترض بكل بداهة وجود سلف مشترك)، هذه القردة العليا التي نحن نسخة منها، كما أسلفت القول، هي قريبة جدا من الآخرين ومختلفة عنهم في نفس الآن (توسل الساقين في حركتها وتنقلها بشكل واضح، دماغ أكبر حجما، يد أكثر حذقا ومهارة ، حنجرة في وضع أفضل، وحبال صوتية على كفاءة كبيرة...)، وعلى هذا النحو التمست هذه القردة العليا السبيل نحو ابتداع الزراعة والتعدين، والفن والدين، والكتابة والعلوم، والأخلاق والسياسة، والآلة البخارية والمعلوميات، وفن الطبخ والإثارة الجنسية، والقانون والضمان الاجتماعي، والفلسفة وفن الخطابة، وهذا ما كان خارج دائرة التنبؤ أو شأنا غير مرغوب فيه! ومن بين كل هذا عانينا تراكما مخيفا من الفظائع- حروب ومذابح، التعذيب والاغتصاب، الرق والإبادة

الجماعية- وهي أمور لا تخفى على أحد. الإنسان العاقل والإنسان في صورة الشيطان (Homo sapiens homo demens)، وقد أصاب القول الفيلسوف إدغار موران (Edgar Morin)[27]. تبدو قردة البابون (Les bibonos) ألطف وهي تمارس الحب (وجها لوجه كعادتها) بدل الحرب... مع أنهم يجهلون كل شيء عن موتسارت، وشكسبير، وحقوق الإنسان، وحتى حقوق الحيوان. هل كانت اللعبة تستحق كل هذا العناء؟ الإجابة بالنفي تعني أن نضفي الشرعية على من تقمّص دور الجزّار والجلاّد. ماذا عن الإنسانية من دون أوهام، مع أن الإنسانية لا تستغني عن إنسانيتها. التعذيب من طبع الإنسان، ومناهضة التعذيب من شيمه كذلك. الحرب هي من خاصة الإنسان أيضا. والكفاح من أجل السلام والعدالة كذلك. بؤس الإنسان: وحدهم البشر من هم بإمكانهم أن يتحولوا إلى نقيض أنفسهم (inhumaine). عظمة الإنسان: وحدهم من لهم الاستطاعة – بل من الواجب عليهم- أن يصبحوا بشرًا ونقيض البشرية من الناحية النظرية: الإنسان مجرد حيوان من بين الحيوانات الأخرى. النسخة العملية من الإنسان: الأمر متروك لنا لنأتي بصنيع

---

(27) -إدغار موران (1921) فيلسوف وعالم اجتماع فرنسي، عرف عنه طرحه الفلسفي الذي يسميه الفكرالمركب، وذلك من خلال دفاعه عن استحضار الأبعاد المتعددة التي تحكم الوجود والموجود (البعد الفيزيائي، البيولوجي، الأنثروبولوجي، النفسي، الأخلاقي، الاجتماعي...)، وبالأخص في كتابه المنهج (La Méthode) الذي يتكون من ستة أجزاء.

آخر؛ أو كما قال هوبز (Hobbes)[28]« دعونا نصنع الإنسان»[29]، أو كما قال مونتين (Montaigne)[30] «أحْسِن صنُع الإنسان». هذه الإنسانية ليست دينًا، وإنما هي أخلاق. الإنسان ليس معبودنا، وإنما هو المهمة التي يجب أن نأخذها على عاتقنا.

ثمّة حسب مونتين «واجب عام على البشرية» يربطها «ليس بالحيوانات فقط، وإنما بالشجر أيضا والنبات»، وهذا ما يعرفه أنصار المدافعين عن البيئة اليوم جيّدًا. مع أن النبات والشجر والحيوانات ما تزال على جهل بالأمر. نحن نكافح، على سبيل المثال، من أجل حماية الحيتان والفيلة والغوريلا... ولا ينمّ تصرفنا هذا بكلّ تأكيد إلا عن عين الصواب. لكن لو تخيّلنا في المقابل أن هذا يمكن أن يحدث للبشر، وهذا أمر غير مستبعد، فيصيروا بدورهم عرضة للانقراض، فلن تكلف الحيتان والفيلة والغوريلا عناء نفسها، قطعًا، لمساعدتنا. الإنسانية هي خاصّة الإنسان. الخاصّية الإيكولوجية يصدِّقُ عليها نفس الحكم. فالبشرية ليست عبارة عن مجرَّد نوع من أنواع الحيوانات؛ بل هي الفضيلة بعينها، وكفى بها تعبيرًا عن تفرّد هذا النوع.

---

(28) - توماس هوبز (1679-1588) فيلسوف إنجليزي، مع أنه انشغل بالتاريخ والأخلاق، إلا أن شهرته تعود إلى إسهامه في حقل الفلسفة السياسية، وبالضبط طرحه لصيغة العقد الاجتماعي التي تختلف جذريا مع تصور روسو وحتى مواطنه جون لوك، في كتابه **الليفيثان**.

(29) *Let us make man*

(30) - ميشيل دي مونتين (Michel de Montaigne) فيلسوف فرنسي (1533-1592)، ويعتبر رائد المقالة الفلسفية، ونشرت تأملاته التي تتضمن 94 مقالة فلسفية في ثلاثة أجزاء معنونة بـ"محاولات" (Les Essais).

مع أننا لا نعلم كيف بدأ الأمر، ولا حتى إن كانت ثمة بداية أصلا، لكننا نعلم حقّ العلم أنه كُتب علينا أن نواصل الدفع بعجلة هذا التاريخ الذي يسبقنا، الذي وجدنا فيه أنفسنا، التاريخ الذي يسكننا، وأن هذه هي مهمتنا، ومصيرنا، وكرامتنا، وأنه في نهاية المطاف هو المكان الوحيد والممكن بالنسبة إلينا، المكان الذي يَهَبُنا الشجاعة والسعادة. كل أشكال الحياة يتم تلقّيها، فليس لنا سوى أن ننعم بها. هي معطاة للوجود في كل الأحوال ولم يتم صنعها، فما علينا إذن سوى اختراعها.

(II)

المولود



المولود

قبل وجود الرجل، أعني بذلك قبل أي كائن بشري، ثمة امرأة. الأب دائما؟ بإمكاننا أن نستغني عنه، وقد يتأتّى لنا أن نحقق ذلك في يوم من الأيام. ويحدث، غالبًا، أنَّنا لا نعرفه، أو هو نفسه قد يجهل كل ما له صلة بخصوبته، أبوّته ونسبه. معظم أنواع الحيوانات يتقمصون دور الأب، وهذا أمر لا غنى عنه بيولوجيا، لكن من سيولي الاهتمام الذي يجب لذريته، فحينما يصبحون على بيّنة من أمر هذا الوالد أنه واحد، فلن يكنُّوا له اهتماما يذكر. توجد بعض من العشائر (مثل ما هو الحال بالنسبة إلى عشيرة **النّا** "Na"[31] في الصين) التي لا تعتدّ بمؤسسة الزواج، ولا تعترف بالأبوة كذلك. النساء يهبن أنفسهن للجميع، ويهيّئن أجسادهن للرجال في تواصل قد يدوم ليلة أو بضع ليال. يقع الحمل؟ فلا أحد يعرف من هو الأب. سينشأ المولود في كنف أمِّه، وسيعيش إلى جانبها وجانب إخوته وأخواته غير الأشقاء. ومن شأن هذا أن يخلق لنا على نحو

(31)- هي عشيرة صينية لا تعتد بدور الأب ولا تعهد له بدور باطرياركي، فهو أشبه بالغيث الذي يروي ضمأ عشب البراري، كما أنها لا تعتدّ بمؤسسة الزواج مستقرة؛ لأن الرجال يعيشون رفقة أخواتهم، بينما النساء رفقة إخوانهم، ولذا يكون الأبناء جاهلين بالهوية الحقيقية للأب.

خاص، كما يردد على مسامعنا علماء الإثنيات، مجتمعًا حرًّا وسلميًّا... مع أن الأب ضروري من الزاوية البيولوجية، فإنه لا حاجة لنا به من الزاوية البشرية. يعود الفضل للمجتمع، أكثر مما يعود للطبيعة، ليحوز هذه المكانة المبالغ فيها؛ مكانة تمكّنه من السلطة وتبيح له الامتلاك باسم اللقب (عندما نتحدث بلسان الأم، كفى بذلك شهيدا على كل شيء: بينما تلقّن الأم اللغة، يكتفي الأب بأن يحيل إلى اسمه...). التفاوت عينه يطبع الطبيعة، ويغشى الثقافة، ليستقر به المطاف متعارضا مع الطبيعة مصوّبا إياها. الأب تراه، دائما وأبدا، لا يخلو موضع من وجوده، قُيّض له من الهيمنة الاجتماعية ما قُيّض، وأوتي من الحظوة الثقافية النصيب الوافر. قد يكون لاسمه، لقانونه، وما يمتلكه الكفاية التي تسد كل الحاجات في كثير من المجتمعات. لا يتمتع، في أقصى الحدود، سوى بدور رمزي (أو أن دوره، كما أسلف القول لاكان (Lacan)[32] هو دور رمزي في حد ذاته). الأمر يختلف مع الأم. لا تكتفي، كما عُهد ذلك عند جميع الثدييات، بوهب الحياة ونقلها فحسب: بل هي تحتفي بها، وتحمل أعباءها، وهي منبع قوتها، فكيف نتغافل عن كل هذا؟ أليس، في نظر الناس، عليها يقع عبء أن تصون صغارها وتؤمن لهم الحماية – ولو اقتضى في بعض الأحيان أن تواجه الأب- لأعوام مديدة، تسليته ومؤانسته وهو رضيع، وأن تتكفل بغسله، وتسبغ عليه من فيض حبها وحنانها،

---

(32) -جاك لاكان (Jacques Lacan) محلل نفسي فرنسي (1901-1981)، اشتهر بقراءته التفسيرية وتجديده العميق لإرث مدرسة التحليل النفسي التي خلفها فرويد. ومن أشهر أعماله كتابه "كتابات" (Écrits) الذي صدر سنة 1966، وفيه تمثّل للمنهج البنيوي في مجال التحليل النفسي.

وتبادر إليه بالحديث وتنصت إليه، وتسهر على تعليمه وتهذيبه... فالبشرية هي اختراع النساء. تظل المرأة، حتى في مجتمعاتنا الحديثة، هي مصدر الحب، كما تبقى أحيانا مبعث الحب الأخير. فهي تعدّ منبع المحبة (la première aimante).

قد لا يكون للموضوع أهمية تذكر، على نحو ما سنشير إلى هذا الأمر بشكل عابر، إن كان الأمر يتعلق بالأم البيولوجية أم لا. والدي، على سبيل المثال، وُلد من أب يدعى جوليان كونت (Julien Comte)، عاش كل طفولته في عهدة عرابه وعرابته، رفقة السيد والسيدة سبونفيل اللذين تبنيّاه في نهاية المطاف. مع أني لا أعرفهم قطعا، لكني كنت ألمس في حديث أبي عنهم، على ندرته، نبرة يمتزج فيها الشعور بالغبطة والعاطفة. أُبْتُلِيَ في نهاية حياته، وهو شيخ طاعن في السن، بمرض الزهايمر، لم يكن يجيد التلفظ سوى بكلمة واحدة، هي الوحيدة التي ترددت بشكل دائم على لسانه، والتي أسعفته على نحو غريب على مناداة زوجته التي لم تفارقه، والتي طالما أحبها (هل اختلط عليه الأمر بينها وبين أمه بالتبنّي؟)، لكنها مثل الكلمة التي تردد عادة كأنها شكوى، مثل صرخة تستغيث، لربما مثل صلاة لم تعد موجهة إلى شخص حي يرزق، بقدر ما تربطه بالحياة نفسها، حياة الإنسان على أي حال، دعونا نقول بعضا من الإنسانية المتاحة التي ما زالت تلازمه: »عرّابتي، عرّابتي، عرّابتي... «. مضى على وفاتها نصف قرن، مع ذلك فهي ما زالت حية عنده أكثر من والديه الذين يرتبط بهما برابطة بيولوجية، وكان يعرفهم معرفة جيدة، أو من أطفاله الذين لم يعد يعرفهم... الأم بالتبني هي أم. حقًا إن الأم

البيولوجية هي واحدة لا غير بحكم الرعاية المقدمة، والاهتمام، والتربية، والحب. لا يسمح للأم أن تبقى في بلداننا اليوم مجهولة، ما عدا إن عبّرت عن رغبتها في ذلك على نحو صريح (فيكون المواليد في حكم المجهول"X"). قد تجهل كل شيء عن أطفالها (إذا تخلت عنهم، وأخذو منها)، لكنها لن تتجاهل أنها حملتهم وكانت السبب في وجودهم في العالم. فالأمومة موشومة في جسدها (بينما تكون الأبوة مسطرة في الأوراق والجينات فقط). فكون المرء أبًا، أمر يتعلق أوّلًا بوظيفة بيولوجية، ثم رمزية. أما كونها أمًّا، فالأمر يتعلق بوظيفة فيزيولوجية، تكفّلية، وحيوية. في حين أنه لا يمكن أن نستغني عن الأم من الناحية الإنسانية.

لكن لا بد أن ينتهي المخاض بالولادة: عليه أن يترك رحم أمه، على الأقل في اليوم الأول الذي يقبل فيه على دنياه.

لغز الولادة على غاية من العمق، كما كتبت سيمون فايل (Simone Weil)[33] في موضع ما. وهي موضوع على غاية من الثراء جدير بالتأمل أكثر من الموت. فهي تجابهنا بالصدفة، وهي من قبيل الضرورة الصادقة، بينما الموت يجعل منا قربانا للقدر، كأنه عبارة عن ضرب من الضرورة المبرمجة أو القائمة بأثر رجعي. سواء أكان موتي كليًّا أم لا، سواء قُدّر لي أن أُبعث من جديد أم لا، فإن حياتي على هذه الأرض هي نفسها. لكن ماذا لو لم أولد؟ أو إذا

---

(33) -سيمون أدولفين فايل (1909-1943)، فيلسوفة وناشطة ومناضلة سياسية فرنسية، ورغم وفاتها في سن مبكرة (34 سنة) إلا أنها خلّفت العديد من الأعمال الفكرية، ولعل أشهر كتابها التجذّر (**L'Enracinement**).

ولدت لأبوين مختلفين؟ أو ببساطة من نفس الأبوين، وكانت ولادتي من بويضة أخرى وحيوان منوي آخر؟ هل سأكون شخصًا آخر أو بالأحرى لن أكون سوى ما أنا عليه. كل موت هو قدر (حتى لو حدث بالصدفة: عليك أن تموت على أي حال). لا يمكن أن تحدث الولادة، حتى لو رغب الأبوان أو قررا سلفا ذلك. الموت قدر، الولادة فرصة.

لست أدري من هو الكوميدي الذي أجرى عملية حسابية موجزة، استنادًا على عدد الحيوانات المنوية (تنتج الخصيتين حوالي ثلاثمائة مليون في اليوم) والبويضة (واحدة في الشهر)، فتوصل إلى أن احتمال أن يولد كل منّا، على افتراض أن والديه عاشا سوية، هو أقل من فرصة واحدة على مائة ألف مليار. واستخلص مازحًا أنه من المعقول أن نفكر أن كل فرد استنفد مخزونه من الفرص، منذ أن حسم خياره دفعة واحدة... كان مبالغًا بطبيعة الحال في هذه النقطة الأخيرة، وهي لذلك مدعاة للضحك: يحدث أن تكون الحياة، حتى بعد الولادة، أكثر سخاء مما يتوقع المرء. كما أن كثرة الأهوال المحتملة تجعل الحظ واردا على مر الوقت بالضرورة، إذا استلزم البقاء على الحياة ذلك... لم يكن صاحبنا الذي يمتهن الفكاهة مخطئا في قوله، وبالخصوص في مسألة في غاية الأهمية بالنسبة إلينا، وأقصد بذلك الاحتمال الأقصى الذي يسبق بأيام كل تصور أو تخطيط. ماذا لو لم يتمكّن والدانا من ممارسة الجماع في ذلك اليوم، أو مارساه ساعات قبل الموعد المكتوب أو بعده، أو ربما في وضع آخر، لما كنّا هنا اليوم للتفكير في الأمر. تقلّبات الرغبة، ومقامرة العيش. حدث الولادة،

بالنسبة إلى كلٍّ واحد، يعني الظفر بأول جائزة كبرى على الإطلاق، وهي بالضرورة ذات أهمية كبرى، بما أنها ترهن الآخرين جميعًا. ثمة المزيد. انعدام هامش وقوع الاحتمال في مداه الأقصى لا يستثني تصور كل من والدينا، فضلًا عن تصوّر أجدادنا الأربعة، وأيضا التصور الذي يخص أجدادنا الثمانية سلفا... وهذه الاحتمالية مجبولة على التواتر، كل واحدة منها مشروطة بسابقتها، يضاعف بعضها البعض. بعد بضعة أجيال، فإن احتمال كل ولادة، وإن لم يكن يلامس درجة الصفر، فإنه سيكون ضئيلًا جدًّا إلى درجة أنه لا يجرأ كل متخصص في الإحصاء على إبداءِ وجهةِ نظره في الموضوع مُقدّما. أن نُصِيب حظنا من اليانصيب، جنبا إلى جنب، فهذا ضرب من لعب العيال.

ها قد ولدنا الآن: المعجزة حدثت، مرّة واحدة على الأقل، بالضرورة مرة واحدة، لكي لا يكف كل واحد منّا عن التوقف عن الوجود كل مرة –من جيل إلى جيل وحتى مع مراعاة الإنسان الحديث فقط– لما يقل عن مائة ألف سنة... جماع واحد فقط من بين الآلاف التي تفصلنا عن أسلافنا الأوائل (أو بالأحرى يجعلنا في ألفة معهم عبر سلسلة قدر تكون متقطعة أو متصلة في آن واحد). هب أن جماعا واحدا منها لم يحدث أو لم ينتج عنه ثمرة، فكل ما سيتعاقب بعد سيكون مختلفا– ويمكن أن أقول إن لا أحد منهم سيكون موجودًا، ونحن لن نكون هنا لكي نتفاجأ بوجودنا هنا! يعتبر الجماع، الإخصاب والحمل من أكثر المسائل ابتذالا ضمن زمرة الأنواع. ليس ثمة شيء استثنائي زيادة على اللزوم، ولا شيء أكثر

قابلية للاحتمال، ولا شيء أكثر تفرّدا غير قابل للاختزال مما ينتج عنه. وهذا ما لم يكن متوقَّعًا سلفًا. وهذا ما سوف لن يحدث مرَّةً أخرى. الفرد: مهما يكن، فهو مختلف عن الآخرين. وحتى لو تعلق الأمر بتوأمين متماثلين؟ لا يعدو أن يكون هذا مجرد تفردّ. وحتى لو اعتبرنا أنهما متطابقان جينيا، فإنه لا ينقص شيئا من اختلافهما عدديا، بما أنهما اثنان، وهو ما يجعل منهما أكثر فأكثر شخصين مختلفين من الناحية النوعية. مختلفين إنسانِيًّا، لأنهما لا يحتلان نفس الفضاء، ولم يكن لهما نفس المسار في الحياة، ولم يكتويا من الجروح ذاتها، وما كانا لهما قط نفس الذكريات، ولا نفس الحب... لا شيء يفوق التفاهة من أن يولد المرء. ليس هنالك شيء أكثر إثارة للدهشة أن تكون ما أنت عليه. تفاهة الحياة: معجزة الحياة.

من شأن التفاهة أن تجعلنا متواضعين، بينما التفرّد اقتضاء. لا أحد اختار أن يعيش، ولا أن يكون هو ما هو. والحال أن كل ما تبقى، بما في ذلك التحولات المستقبلية رهين بذلك. هل هنالك ما هو أكثر سخافة حينما يكون المرء على اعتزاز بنفسه، بجماله المحتمل، وقوته الممكنة، وذكائه المنتظر، وحتى خياراته- بما أن المرء لم يختر هذه الذات التي هي ذاته، والتي منها تنبعث كل الخيارات؟ كتب سارتر» نحن أولا وقبل كل شيء لا شيء». ستغدو الحرية ذلك العدم الذي آيته أن يكون» كل شخص خيار مطلق لنفسه «. وهو ما بإمكان أول مولود جديد يُقبل على الدنيا، يتفطن لهذا الأمر بعين ثاقبة، أن يدحضه. كيف كان سيختار نفسه؟ كيف يمكن أن يكون لا شيء؟ وكيف وجب عليه مباشرة، ومنذ البداية أن» يزجّ بنفسه نحو

المستقبل». ولكن كيف يمكننا أن نقبل، ما قبل به سارتر، بأنه «لا يوجد شيء قبل هذا المشروع»، وإلا ما كانت لتكون لأي مشروع قائمة؟ يقتضي أن نكون أولا لكي نتبنى أي شيء: الجوهر (ما نحن عليه: الجسد) يسبق الوجود (ما نختاره، نتبناه، وما لم نتولاه بعد) ويسمح به. بل جاز القول إنَّ بين الماهية والوجود، في الوقت الحاضر، تداخل وثيق. وماذا بشأن ما يتعلق بغير الحاضر؟ إنها اللحظة الفريدة للوجود، للفعل، والحرية- اللحظة الحقيقية الوحيدة. هل المستقبل هو ما نختاره فقط؟ أو غير ذلك. لكن اختيارنا له يكون في الحاضر. تسود الأنطولوجيا هنا على الأخلاق، أو بالأحرى أن الأخلاق ليست سوى ضرب من الأنطولوجيا بالفعل. العيش في الحاضر، كما قال الرّواقيون، وكما يقول جميع الحكماء، ليس مجرد شعار، بل هو ضرورة (فمن ذا الذي يستطيع أن يعيش في الماضي أو المستقبل؟)، إنه الواقع الماثل أمام كل واحد منا (الوجود هو أن تكون حاضرًا في الوجود)، وهي الحياة عينها. فأن نتذكّر؟ فهو ممكن في الحاضر فقط. أن يتوقّع المرء، يتخيّل، أن ينشئ إنشاء؟ ليس ممكنا سوى في الزمن الحاضر. هذه هي الحرية الحقة. هذه هي الإنسانية الحقة. الوجود بالنسبة للإنسان يعني ألا يكفّ عن الوجود، وأن نوجد (العيش، الفعل، التغيير)، فهذا سبيلنا الوحيد للوجود. غير أنه في النهاية يتعيّن علينا أن نوجد وباستمرار. والحرية ما هي سوى نقطة البداية أكثر من كونها مسارًا، وهي أقل من أن تكون إرادة حرة بقدر ماهي تحرّر. لا يوجد شخص يملك خيارًا مطلقًا من ذاته، ولكن لا أحد أيضًا يمكن أن يستغني عن

الاختيار. لا نولد أحرارًا، وإنَّما نصبح كذلك.

وهذا ما يجعل منَّا إنسانًا ملحاحًا. هذه الحياة التي لا يطاق حملها التي وهبنا إيّاها، يقع على عاتقنا ألا نفرّط فيها ونعيث فيها فسادًا. الحياة ليست قدرًا، وإنما هي مغامرة. لم يختر أحد أن يولد، وبالمثل لا أحد يعيش من دون خيار. الجميع بريء من نفسه، لكن كل واحد يتحمل وزر أفعاله. فهو مسؤول على الأقل مسؤولية جزئية على ما سيكون عليه. أرسطو أعمق من سارتر. التكرار يعلم الشطار، ومن خلال معاقرة الخمر على الدوام، نصبح مدمنين على الكحول. ومن خلال القيام بأعمال فاضلة يصبح المرء فاضلا. » أن تفعل، كما قال لوكيي(Lequier)[34]، هو أن تجعله يتحقق«. هذا لا يجعل منَّا شخصًا آخرَ، وهو ما ليس بمقدور أحد أن يجعلنا كذلك. لكنه يمنعنا من أن ننأى بأنفسنا بشكل خاطف عما نحن عليه، وهو ما لا ينبغي لأحد أن يفعله.

فكل الحياة، كما أسلفت القول، أهلّت علينا. فالأمر عائد لنا ألا نكون جديرين بهذا الحاضر الذي وُهِبَ لنا، وهو الحاضر نفسه. مقامرة العيش: الكفاح من أجل العيش. كوننا جميعا ولدنا بمحض الصدفة، هو أمر لا غبار عليه، وهذا ليس سببًا وجيهًا لكي نعيش في كنف الصدفة. الولادة هي الفرصة الأولى، فلا تدع الفرصة تنفرط منك، وهذا هو الواجب الأوَّل.

---

(34) - جول لوكيي (Jules Lequier) فيلسوف فرنسي (1814-1864)



(III)

الطفل





الطفل

قبل الرجل، وقبل المرأة، يوجد الطفل، دائما وأبدا. «كنَّا جميعًا أطفالًا قبل أن نصير رجالًا» كما أفصح ديكارت (Descartes)[35]. ومن هنا منشأ الأحكام المسبقة كما أشار لهذا الأمر كذلك. وقد نضيف على ذلك في توافق مع فرويد (Freud)[36]، حبنا، مخاوفنا، مُثلنا، وأخيرًا إنسانيَّتنا الواعية وغير الواعية. كلّ منا يحمل طفولته معه. هذا الحمل الثقيل والخفيف الذي لا يكفّ على مصاحبتنا. في السراء؟ والضراء؟ في الحالتين معا. يكاد الأمر ينحصر في النمو. تمثّل الطفولة، بالنسبة للجميع، نقطة البداية (والتي تشمل، على الرغم من أننا لا نعرف الشيء الكثير عن ذلك، الحياة داخل الرحم) والتي لا مفر لنا من الفكاك منها. لكن

---

(35)-يعتبر الفيلسوف الفرنسي رنيه ديكارت (1596-1650) عراب الفلسفة الحديثة، ورائد المدرسة العقلانية (الكوجيطو) التي حظيت بصدى أوسع لدى معاصريه (سبينوزا، مالبرانش، لايبنيتز....) وفي الأبنية الفلسفية التي ستتراكم بعده (كانط، فيشته، هيغل، هوسرل، هايدجر، سارتر، ميرلوبونتي...). فضلا على إسهامه الفلسفي النظري، تميز بإضافاته النوعية ضمن البصريات والهندسة التحليلية والميكانيكا.

(36) - زيغموند فرويد (Sigmund Freud) طبيب ومؤسس علم النفس التحليلي (1856-1939)، ويعتبر رائد مدرسة التحليل النفسي التي ستجد لها امتدادا في ما يعد، سواء في حقل علم النفس (يونغ، أنا فرويد، جاك لاكان..) أو في الفلسفة (فوكو، دولوز...). وكان له الفضل في إنشاء نظريات وتقنيات عديدة تعتمد في التحليل النفسي، وتفسير الأمراض النفسية.

لا أحد يمكنه أن يعتق نفسه منها سوى الطفل عينه. ليس أمامنا خيار. فإما أن نكبُر أو نموت، نكبُر ونموت. اللاوعي هو ما يتبقّى معنا من ذكريات طفولتنا. وكذلك الأنا الأعلى أو المثل الأعلى للأنا لا يقل أهمية. الأنا؟ تبذل ما في وسعها لتوفّق، كما يقول فرويد، بين رغبات الهُو الذي يكون في حلّ من قيد العمر، ومطالب الآباء المستبطنة التي هي أشدّ حرصًا على الحفاظ على العمر فينا قياسًا على عمرهم – سلبيًا أو بالكاد أن يكون سلبيًا- حينما كنا أطفالًا. كم كانت هذه الأم التي أرضعتني في مقتبل العمر، كم كانت جميلة، كم كانت مختلفة عن تلك التي أصبحت عليه لاحقًا، والتي سنضطر لمرافقتها، تحمّلها، وأن نغمرها من فيض الحب في كل الأحوال! وكم كان هذا الأب على قوة وبأس، مثيرا للإعجاب، مخيفا، قبل أن يأخذ منه وهن الشيخوخة رويدًا رويدًا! أن نقف في وجههما؟ فمن الاستحالة أن نأتي بمثل هذا الصنيع ونحن ضعفاء، ثم إنه من السخف فعل ذلك وهم على الحال التي أصبحوا عليها. ومع ذلك فهذا أمر لا مهرب منه؛ فما نفع المراهقة إذن، وما فائدة الطفولة حينئذ، والتي لا ينفلت منها أحد ولا أحد منها براء. تظهر إما في صورة مبكرة جدا أو في صورة متأخرة جدا «يقف الموت، كما قال بوبين (Bobin)[37]، حجرة عثرة في مسار التلميذ».

الطفولة معجزة وكارثة. معجزة، بحكم أننا عشناها بشكل لم يسبق له مثيل، بشكل لا يقبل الاحتمال، بشكل لا يمكن تفسيره- لم

(37) - كريستيان بوبين (Christian Bobin) شاعر وأديب وكاتب فرنسي (1951).

نعهد فيها سوى الجديد. كارثة، لأننا نحاول عبثا أن ننعتق منها دون أن نفلح في ذلك.

هل من مظهر عصي على سبر غوره أكثر من مظهر المولود الجديد؟ إن كان على بيّنة من كل شيء، أو أنه يجهل كل شيء، فيكون مثل نقطة ضوء في ليل حالك، أو مثل الدّجى في يوم صاف. كأننا جميعا، كما يقول مارك فيتزل (Marc Wetzel)[38]، مخلوقات «فضائية (extra-terrestre)»، قبل أن نكون مخلوقات «سماوية» (l'extra-céleste). فهل ثمة شيء جدير بالانتباه أكثر من نظرة طفل في مقتبل الصغر؟ وهو أن كل شيء يمثّل مبعث اندهاش بالنسبة إليه. فكل شيء بالنسبة إليه هو جديد. انتباه خالص: حاضر خالص، طاهر مثل المستقبل. كل ما يتخلّل حياتنا فيها بعد، سوف يتراءى لنا مثل فرصة أو استعارة متاحة، أو أشبه بشيء تلاشى بالفعل، أُشبع استخدامًا، وأخذ منه الوهن كل مأخذ. كل ما تبقّى، ما خلا جزءًا من الطفولة التي تقيم فينا، تم الحفاظ عليه والعثور عليه، على سبيل المثال في الحب والفن. معجزة الطفولة: معجزة الربيع، والتي ستكون الأولى من نوعها. معجزة الصباح، ولكن قبل الليل والسبات.

لم يتعاف ميرلوبونتي (Merleau-ponty)[39] مطلقًا من الطفولة

---

(38) -مارك فيتزل (1953) كاتب فرنسي.

(39) - موريس ميرلوبونتي (Maurice Merleau-Ponty) فيلسوف فرنسي (-1961 1908)، من أهم إسهاماته الفلسفية نجد كتاب فينومينولوجيا الإدراك والمرئي واللامرئي. ويعتبر من أهم ركائز المدرسة الفينومينولوجيا، وأهم ممثل لها في فرنسا إلى جانب سارتر وريكور.

السعيدة. وهذا ما أفضى به لسارتر (Sartre)[40] 1947، وهو ما أوَدُّ أن أصدقه، ويمثل خير شاحذ لاهتمامي. هذه الفرصة المجنونة كما وصفها سارتر «تؤول، بعد السقوط، إلى محنة تجعل من العالم أشبه بربع خال، تاركًا إيَّاه يتجرع الخيبات مقدّمًا». أما بالنسبة إلى شخصي الذي طالما ظن أنه لم يتعاف بالمرة من الطفولة التعيسة، فإنه عندما وقع نظره على هذه السطور، فإن الأمر كان أشبه بإيماءة من القدر أو الصدفة، أشبه بابتسامة ومثل الطمأنينة- مثل العزاء في وجه كل ما لا يرحم. وكيف يتعافى المرء من طفولته وهي جزء لا ينفصل عن الذات. أكنا سعداء؟ أم تعساء؟ فنحن لا نواسي أنفسنا لأننا فقدناها أو استطبنا عيشها. ليس أمامنا خيار سوى بين الحنين (بشأن ما كان) والندم (على ما لم يكن)، وبين الامتنان والرحمة، وأحلاهما مرّ. شاغل الحزن: شاغل المعيش. ليس المبتغى هو أن نرهن أنفسنا داخل أسوار الحزن والكرب، بل على العكس تمامًا، من أجل الانعتاق منه إذا استطعنا إلى ذلك سبيلا. هي المسرّة التي نستحسنها. لكن لا بدّ وأن يكون المرء لها بالمرصاد. ما السعادة سوى الحزن الذي انقلب إلى نجاح؛ وما التعاسة سوى الحزن الذي ينبغي تخطيه؛ وما التوتّر سوى حزن ممتنع التحقّق.

في مناقشة عامة ذُهل أحد أصدقائي متعجِّبًا، حينما بُحْتُ له أن أول شعور شعرت به عندما صادفت طفلا في الشارع، هو الشعور

(40) - جون بول سارتر (Jean-Paul Sartre) فيلسوف وأديب وناقد وكاتب مسرحي فرنسي (1905-1980). يعتبر من أعمدة المذهب الوجودي كما عرضه في كتابه الأساس الوجود والعدم، فضلا على كتابه الوجودية مذهب إنساني وكتاب نقد العقل الجدلي، وفضلا عن ذلك خاض مجال التأليف الروائي (الغثيان) والمسرحي (الذباب).

بالشفقة. فهل كان عليّ أن أحمّل طفولتهم نصيبًا من طفولتي. أو ليس ترى كل طفل ضعيفًا، رهيفًا، يكاد يكون أعزل. فإن الحياة في نهاية المطاف كلها مجلبة للفزع، على الأقل من جهة الممكن، على الأقل بسبب الاحتمال المخيف مما هو أسوأ. كأنه كتب على الطفل أن يكون في مأمن؛ إما عن جهل، أو لا مبالاة، أو ثقة، على الأقل فالطفل سعيد، أو عندما يكون على هذا الحال. يا له من ضعف يغشى الجميع، ومع ذلك يا لها من قوة، يا لها من صحة، يا لها من حيوية لدى السواد الأعظم! «فالضعف آية الله» كما وصفه آلان (Alain)[41]. فهي تأمر أمرًا مطلقًا، من دون أي مقابل. والحب وحده هو الأجدر بها. وحدها تستحق الاهتمام أكثر من غيرها. الآباء يعرفون حقّ المعرفة أنهم سيجعلون من حياتهم وقفا عليهم مكرسة لهم. وهذا ما لم يكن ليدركه الطفل بعد: إنه مثل الإله الذي لم يخلق الدين بعد، ومن سيكون بهذه الخفة، بهذه البساطة، بهذه النعمة التي تتجاهل نفسها ويشعّ نورها، لن يكون سوى من طينة إلهية. ومتى أصبح على وعي بسحره؟ يفقده. ومتى أدرك قوته؟ أفسدها. هل هنالك روعة أكثر من أن ترى اهتمام الطفل لا يتجاوز الاهتمام بالعيش فقط؟ هل هنالك ما يقض المضاجع أكثر من أن تراه يلهث وراء لعبة الإغراء ويتقمص دور النّاهي الآمر؟

الفتى الصغير؟ الفتاة الصغيرة؟ الفرق أثناء الولادة ليس ذا شأن يذكر. الفرق سيترسخ رويدا رويدا، من خلال الثقافة على الظاهر،

---

(41) - كاتب وفيلسوف فرنسي (1868-1951)، اسمه الحقيقي هو إميل أوغست شارتيي (Emile-Auguste Chartier).

أكثر مما يفسر بالطبيعة. فالفتيات، وفق ما تعلمناه ضمن أبجديات المختصين في علم النفس التربوي (les psychopédagogues)، يُتقنّ الحديث مبكّرًا وبشكل أفضل. فهنّ فيما يخصّ الكلام، والعلاقة، والتواصل بين الذوات: يجدن السباحة في اللغة والإنسانية مثل ما تجيد السمكة ذلك في الماء. يتعامل الفتيان بأريحية مع الأشياء التي يجيدون التعامل معها. تراهم أكثر اقترانًا بالعالم، والفعل، والأشياء الموضوعية. وهذا لا يعبّر سوى عن توجه عام لا يخلو من استثناءات عديدة، توجّهٍ مؤقت، يتطلّب منّا تجاوزه. فلا مفر أيضًا أمام الأولاد من إتقان اللغة، والإنصات والفهم؛ مثلما سيكون على الفتيات مباشرة مهمة العمل وتوضيح الأمور. الإنسانية على ملة واحدة، على الرغم من وضعها المزدوج، أو بالأحرى بفضل هذا الوضع هي واحدة. لن نبرح فكرة كون الفتيات الصغيرات لهنّ السّبق، وفي وقت مبّكر جدًّا، في جميع الأمور المتعلقة بالحياة العاطفية والعلائقية. اللّعب بالدمية أو بالسيارة ليسا سيين. محاكاة الأمومة أو الحرب ليسا نفس الشيء. غريزة الحياة، غريزة الموت؟ ما هي إلا أساطير مثل غيرها من الأساطير، مثلما أفصح فرويد (l'Olympe)، لكنها على الأقل تنير دربي أكثر مما تلهمني أسطورة الأولمبيوس (la Genèse) وسِفْر التكوين. وأمّا أن نتعامل سويا، رجالًا كنّا أو نساء، مع هاتين الغريزتين، لهو أمر لا غبار عليه. ولكن ليس بالضرورة بنفس الترتيب والنّسب نفسها. الجسم ليس هو عينه. والحال أن الأطفال ليسوا على بيّنة من أي شيء، أو أن هذا الأمر لا يعدو أن يكون بالنسبة إليهم مجرَّد لغز آخر، والذي لن يكفّوا عن استكشافه.

فترة الكمون، كما يقول عنها فرويد: هي فترة الجنس الضمني، كأنها فترة سبات، بالكاد تكون نسيًا منسيًّا. الجسد غير مهيأ بعد. النفس بدورها غير مهيأة. ما النقاء؟ ما الصفاء؟ سوى كلمات تجري على لسان الراشدين. بالنسبة إلى الطفل لا يعدو أن يكون الأمر أشبه بصمت معين، مثل مسافة معينة تفرض الاحترام. وبما أن مجتمعنا لن يُذلّل أمامهم الصعّاب وييسّر عليهم المهام، وهو الذي يقصفهم بوابل من الجنس والعنف، أو ليس ذلك سببا وجيها يلتمسونه لكي يكونوا في مأمن وحِفظ.

بطء الطفولة: هو بطء على قدر كبير من الحكمة في الحياة، وهي تلتمس خطواتها الأولى. سرعان ما يتسارع إيقاع كل شيء، ثم يتحول كل شيء. النموّ، البلوغ والمراهقة... إلى حيث يكون الجسم هو الآمر الناهي. العقل يقتدي على قدر ما يقتدر. لم تعد الطفولة سوى مجرد ذكرى. هذه الذكرى التي تقيم فينا، أو نحن الذي نقيم فيها. لا يوجد أناس راشدون كبار، بل لا يوجد سوى الأطفال الذين أبوا إلا أن يلازموا هذه الحال، والذين يواسون أنفسهم قدر المستطاع. ألم يقل ألان (Alain) أنه «لا يتوانى كل واحد منا على الدفع بطفولته قُدما، وهذا هو مستقبلنا الحقيقي». المستقبل يقبع إذن خلفنا؟ ليس إلا. لكّنه مُقبل علينا لامحالة، وهذا ما نسمّيه بالحاضر. الندم أو الحنين، الاستياء أو الارتياح. رافقني الإحساس بالطمأنينة لأمد طويل. تولّد لدي في السن العشرين إحساس بأن الأسوأ قد حدث بالفعل. كنت مخطئًا. لا أتردد مثل غيري في الدفع بطفولتي قدمًا. والطمأنينة معدنها ثقيل في الميزان أكثر مما نعتقد.



(IV)

المراهق





المراهق

تعقب مرحلة الطفولة المراهقة. هي أزهى مراحل العمر وأجملها على الأقل بالنسبة إلي، المحبّبة جدًّا، الأكثر إثارة للقلق، والأكثر اضطرابًا كذلك، وهذا ما يضفي عليها مسحة سحرية إضافية.

لسنا على بينّة متى تبدأ ومتى تنتهي. إنها صيرورة وليست حالة. تبدأ في غالب الأحيان في سن الثاني عشر والثالث عشر بالنسبة للفتيات، وفي سن الثالث عشر والرابع عشر بالنسبة إلى الأولاد (ما قبل سن المراهقة)، وتنتهي في سن العشرينات (الشباب). فترة البلوغ التي تمتد في حد ذاتها على مدى عدة سنوات، تعتبر بمثابة علامة مرجعية أو نقطة تحوُّل، دون أن تكون قادرة على اختزال المراهقة إلى مجرد تحول فيسيولوجي بسيط. يا له من جيشان! تطور الأعضاء التناسلية، وظهور الخصائص الجنسية الثانوية (نمو الصدر لدى الفتيات، وتحول الصوت لدى الفتيان...)، الخصوبة تستتبّ، والنمو يسارع إيقاعه، والجسم كله يتغيّر... وعكس ذلك يعني أن ثمة لا محالة خللا ما يغشانا. ثمّة أيضا الروابط مع الأبوين التي لم تعد هي نفسها، والعلاقة مع الأصدقاء، والصلة بالحياة الجنسية، والعلاقة مع الذات والعالم... يتساءل المرء. أحدنا يبحث عن

الآخر، وكل منا يعارض الآخر. هذا هو زمن التباينات، والتناقضات، والنزاعات، بما في ذلك التشنجات الداخلية. فكل شيء يتداخل ويتشابك. الإيثار والكرم، الإحساس بالنشوة والكآبة، الإذعان والثورة، الوحدة وروح التمرّد، الخجل والجسارة، التوق إلى المطلق والاعتراف... كم هي الحياة شاقة، ملؤها الارتياب والتردّد! لم نعد ذلك الطفل الذي كنّا، ولم نبلغ بعد مقام الرشّد. لم يحن الأوان بعد، لكن لا محالة أننا بالغون ذلك. نحن نقيم مؤقتا في المؤقت، في لحظة زائلة وغير مكتملة. وهذا هو وحده الخلود الحقيقي. لسنا على بيّنة من الأمر بعد. بودّنا أن نتوقف، وبودنا أن نمضي قدمًا. نتحرّى عن سبيلنا بقدر ما في وسعنا، لدى الأحبة والأصدقاء، بين من كانوا وبين من لم يأتوا بعد، كما لو أننا في عبور نحو الأزلية المقبلة. لا نخال أنفسنا أننا بلغنا المبتغى. نتظاهر إلى حين أننا لسنا شيئا آخر سوى ما نحن، وهذا ما علينا أن نفعله (وإلا كيف سنصبح كذلك؟)، لكن من دون أن نحمل ذلك محمل الصدق. نستكين إلى كل ما هو مأساوي، ونعرض على كل ما يُحمل محمل الجدّ. لسنا على طيش من أمرنا حينما بلغنا السن السابع عشر. ينقصنا الجَلَد، وقد أخذ منّا التعب كل مأخذ. يُردّد الآباء أن مشوار النمو، والدراسة والأمسيات كانت مديدة، بينما الليالي على غاية القصر... والأكثر من ذلك فالحياة متعبة، مبتذلة، محبطة، وكأننا بحاجة إلى تمرين أنفسنا أكثر أو نذعن ونستقيل. غالبا ما نشعر بالضجر. متخمون بالرغبات والمخاوف. لم نعانق السعادة. غير أننا نحبذ هذا

الأمر. قال هوغو (Hugo)[42]«الكآبة هي سعادة أن تكون حزينا».
تشبه هذه السعادة المراهقة التي هي العمر الرومانسي بامتياز (الحيز الزمني الوحيد الذي عنّ لي أن أقول عنه، أنه الزمن الذي تأبى فيه الرومانسية أن تتحول إلى مجرد كذبة أو سخافة). يصبح اللوم من نصيب عائلته، ومجتمعه والأرض كلها. بينما نُفضّل أحلامه، كما نؤثر مُثُله الرفيعة. وهذه هي المرحلة العمرية التي تعرف ثورات عارمة، غضب عارم، وخيبة آمال كبيرة (يمثل الانتحار المسبب الثاني لوفيات المراهقين، بعد حوادث السير)، ومشاعر رحبة، وأحقاد جمّة. ونحن نتقمص دور المعارضة، فإننا ننهض بأنفسنا في المقام الأول. هكذا هي روح المراهقة، التي تجحد كل شيء، وربما هي دأب الروح نفسها. المشهد سيء بالنسبة إلى الوالدين، لكنه جيد بالنسبة إلى البشرية. كتب أوسكار وايلد (Oscar Wilde)[43]. «عندما يكون الأطفال صغارا يكنّون كل الحب لوالديهم. في الوقت اللاحق يحكمون عليهم، ويصفحون عنهم أحيانًا». المراهقة هي اللحظة المناسبة لإبداء هذا الحكم؛ هي لحظة النضج، ولحظة هذا الصفح. لكن علينا أن نتمهّل الخطى. يجب أن نبدي الحكم أولا، وندين أولا، ونقدم على حرق كل ما أحببناه، أن نقتل الأب رمزيًا، أن نجرح شعور الأم، أن نحطِّمَ الأصنام والمظاهر الزائفة، أن نهشّم المحرمات والمحظورات. لا نولد، كما أسلفت القول، أحرارا، وإنما نصير

---

(42) - يتعلق الأمر بالكاتب والروائي والشاعر الفرنسي فكتور هوغو (1802-1885) الذي يعتبر من أبرز الأدباء الفرنسيين خلال الحقبة الرومانسية.

(43) -كاتب وشاعر وباحث في الجماليات، بريطاني من أصول إيرلندية (1854-1900).

كذلك. والمراهقة هي لحظة حصول هذا التحول وهذا التحرّر. هذا يؤلم، وذاك يخيف. وهذا فأل خير علينا. لا نعرف أين نحن، ولا ندري أين نحن ماضون. معرفتنا بما لا نريده تفوق معرفتنا بما نريده، ودرايتنا بما نخشاه، تفوق درايتنا بما نتوق إليه. من دواعي الحظ أن ثمة الأصدقاء والصديقات، الموسيقي، والوحدة !من حسن الحظ هناك المدرسة الثانوية والعطل! حيث نستشعر بالملل في كليهما. وفي كليهما نتعلّم. لحسن الحظ أن ثمة الكتب-للذين ما زالوا على درب المطالعة لابثين- والسينما! من الجيد أن ترى الوقت يمضي، وسيء أن يجرفنا معه! لقد سئمنا من الانتظار. رغبتنا في عيش الحاضر عارمة، ومع ذلك لا نعرف. نحن في بداية كل شيء ما عدا الطفولة. لسنا سوى مجرد مشروع؛ فنحن لسنا على بيّنة بعد إن كان هذا المشروع يعبّر عن ضرب من الكمال، لكن وحده من سيكون بإمكانه أن يصير من نصيبنا، وهو الذي يشبهنا غاية الشبه (هذه هي حالتي كما تتراءى لي: لم أتعرّف على نفسي على نحو أفضل إلا خلال السن السابع عشر)، والذي لا يتوانى عن مرافقنا، ومحاسبتنا، ويجعلنا نستشعر خجلا من أنفسنا في بعض الأحيان. لم ننضج بعد، لكننا نجد أنفسنا على غاية الإلحاح في مطالبنا. متسلّحون بالحماسة والصرامة والانضباط إلى حد الامتلاء. مفعمين بالسذاجة وخيبة الأمل. نحن صغار. نحن كبار. سحقا لهما. آه! فالحياة بطيئة، وإذا بنا نعاينها تنصرم في لمح البصر!

كتبت أول ما كتبت: «نحن شباب، نتمتع بالجمال. نمقتهما». بيد أن الجمال في فترة المراهقة لا يكون من نصيب الجميع. وهذا جور

من نوع آخر. ثمة ما يُشْكل على الكثيرين، وخاصة في نهاية مطاف فترة المراهقة التي يعمّها النكران، وقد تعدّ بالنسبة إلى الآخرين، وخاصة في بدايتها، الفترة العمرية التي يفصح فيها عن آداب السماحة والشعر... فهم مع ذلك، من دون استثناء، تجدهم على جمال معتبر على خلاف ظنهم بأنفسهم، ودوام هذا الحال لهم من المحال. ما فتئ جمال الشيطان والملاك يسترعي دهشة الراشدين، فهو في الآن نفسه مغر ومقلق... وهذ ما يجهله من هم في سن المراهقة، أو يعرفونه من خلال ما يقال ويشاع. أما القول بأنَّ الشباب معجزة، فهذا أمر يقتصر على كبار السن فقط. أستعيد ذكريات أمسية قضيتها في ضيافة صديقين منذ سنين خلت. ابنتهما التي كانت تبلغ السن الرابع عشر، لم تكن حاضرة: كانت تجالس الأطفال لدى الجيران كما أفضى لي والداها حينئذ... وإذ بها بعد منتصف الليل بقليل تعود إلى المنزل، تقتحم على خجل غرفة الجلوس... أعجوبة. جمال فاتن. الأمر يعدو أن يكون مجرد تعبير عن الرغبة. كأنه بي لأول مرة في حياتي وآخر مرة، أرى بوتيتشلّي (Botticelli)[44] مثالا أمامي بجسده ولحمه، وأن الأمر لا يتعلق بمجرد لوحة فنية أو محض هذيان! مضت سنوات منذ ذلك الحين. أصبحت ابنة صديقي امرأة في مقتبل الشباب على غاية من الجمال، واثقة من نفسها ومن حسنها. لكنها على غير ذلك السّحر الخارق للعادة الذي كان زينتها وهي في

---

(44) - هو الرسام الإيطالي ألسندرو دي ماريانو دي فيليبيي (Alessandro di Mariano dei Filipepi) الملقب ببوتيتشلّي (Botticelli) الذي زامن عصر النهضة في فلورانسا التي كان فيها مولده ووفاته (1445-1550).

عمر الرابع عشر، وهو ما كان ليكون في بالها، ولا هو سيعود في يوم من الأيام.

هذا الحسن كان ضربًا من الاستثناء. أما سحر الشباب من جهته، فهو إلى وضع الاعتياد أقرب، فهو السحر الذي يميزّ سن المراهقة على نحو خاص، وهو الذي ينكشف في تصرفه المرتجل، والأرعن، في مزاجه المكدر، وحالته الهشة، وتصرفه التلقائي... وهي أحوال لا تدوم. أتذكر، عندما كنا ندرس في الجامعة أيام «الأبواب المفتوحة» التي نشرف على تنظيمها كل سنة لتلاميذ السنة الختامية الذين يستقصون عن المعلومات... توافد في ذلك اليوم عشرات من تلاميذ المدارس الثانوية ليختلطوا بطلابنا في السلك الأول، في الممرات وحتى في الفصول الدراسية... نادرًا ما ترك الأولاد انطباعات تذكر في ذهني، وهذا على خلاف الفتيات اللائي هن في مقتبل العمر. كم كنّ منفردات عن طالباتنا! مع أن فارق العمر بينهن هو سنة واحدة أو سنتان. بَدوْن على طبيعتهن، وأكثر بساطة وحيوية، وأكثر مرحا وإثارة للدهشة... أمَّا طالباتنا فهن مثل فتيات صغيرات يتقمّصن دور النساء، أو نساء في مقتبل العمر لم يُتقنّ الدور بعد. جدّية ورعونة زائدتان عن الحد. في غضون سنوات قليلة، سيُتقنّ ارتداء اللباس على نحو أفضل، وسيعرفن تسريحة الشعر التي تلائمهن على نحو أحسن، ويجدن وضع الماكياج على نحو أنسب... العديد منهن، حين يبلغن سن الثلاثين، سيصرن أكثر جمالًا ممَّا هُنّ في سن العشرينات. غالبيتهن، في السن العشرين أو الثاني والعشرين، يفقدن بالفعل ذلك السحر الزائل والجانح الذي يميزّ سن المراهقة،

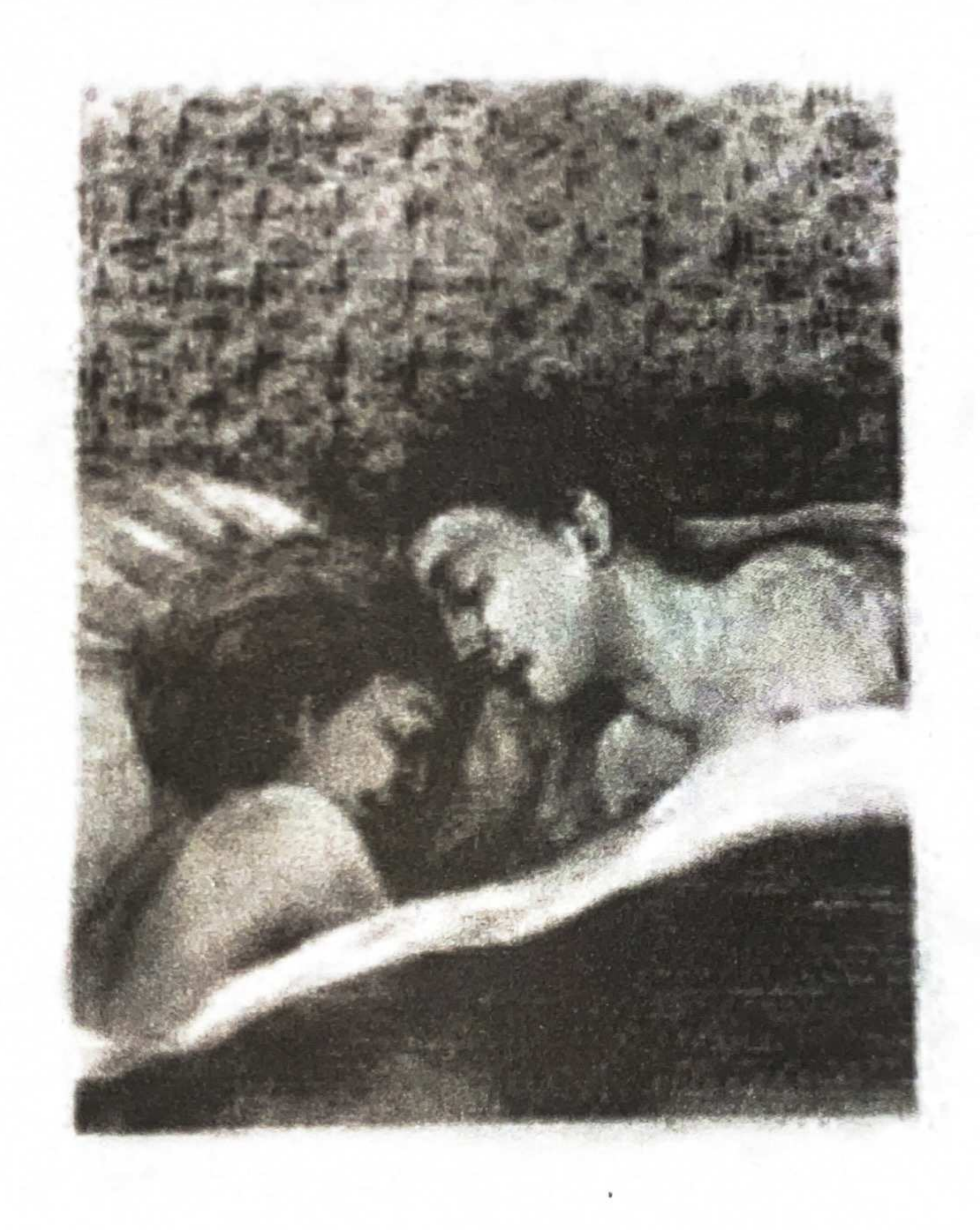
هو عينه الذي آثرته عندما كنت مدرّسًا في المدرسة الثانوية، وهو الذي سأجده في يوم ما، بعد مضي سنوات معافى وجديدًا بشكل يثير الدهشة... لربما لا أكون هنا إلا كمن يفصح عن أذواقه (مهما يكن: لم أحب، منذ نعومة أظافري، سوى النساء اللائي هن في عمري). حتى وإن كان الأمر كذلك، فإن الفرق لا يجحد. امرأة مفعمة بالشباب وفتاة صغيرة، ورجل في منتهى الشباب ومراهق، فالأمر ليس سيين. أولئك يلتمسون الخطى نحو الشيخوخة، وهؤلاء ما فتئوا يكبرون. أولئك يحسبون ضمن عالم الكبار، وهؤلاء يعدون العدة لدخوله، بكل تؤدة وصعوبة، دون أن يصدقوا أمرهم تماما.

كيف لا ينتابهم الخوف ولو قليلا؟ نود أن تعمّهم روح الطمأنينة. لا نعرف على وجه الحقيقة إن كان علينا أن نحسدهم أو نتذمر منهم. نستحضر شيئًا آخر يميزهم. فالمراهقة هي أبعد من أن تستكين للثرثرة وتدفعها دفعا. هذا هو السنّ الذي تستتبّ فيها الأسرار، الثقة والأحلام التي تفوق كل وصف... وهذه الأمور ليست في متناول الكبار، ولا ضير في الأمر. الطفولة معجزة وكارثة. المراهقة لغز ووعْد، لكننا لا نتمكن من الاحتفاظ بها إلى وقت لاحق.



(V)

أن تحب





أن تحب

أن يحب المرء لهو، بكل تأكيد، مسألة في غاية الأهمية. لكن من ذا قد يستطيع ذلك من غير أن يكون محبوبا بادئ الأمر؟ نبدأ من هناك، دائما وأبدا، في أحضان امرأة، ضد هوى قلبها، ضد صدرها، في جوف حلمها وحبها... هي من بادرتنا بحبها أول الأمر، وهذه هي نقطة التحول، ليس لأنها فعلت ذلك قبل الآخرين، بل قبل أن نبادرها من جهتنا بالحب، وقبل أن نعرفها أصلا، وقبل أن يتعرف بعضنا على بعض. هي من بادرتنا بالحب من غير داع ولا سبب، وأعني به كل سبب وجيه يخصنا شخصيًّا. لم تكن تعرف عنًّا شيئا يذكر، ما عدا أننا صغارها (بما في ذلك الأمهات بالتبني: لن يكنّ أمهات لولا ذلك)، فقد كنا بحاجة ماسة إليها، بحاجة إلى حبها، بحاجة إلى حاجتها... هذا الحب على نقيض الإحسان، بما أنه يكاد يكون كل شيء ماعدا أنه ليس حبًّا كونيًّا، ومع ذلك تجده أكثر شبهًا بالمطلق، بنكران الذات، (هو كذلك، بالرغم من الأنانية، ورغم ميول التملك، ورغم الشغف: لن تفتأ تحبه ولو لم يحبها البتّةَ)، بنسيان الذات والكل. وهذا هو الحب غير المشروط بامتياز (وأعني من دون أي شرط آخر غير هذا الشرط: أن تكون طفلا)، ربما هو الشيء الوحيد الذي نَقْدر عليه، لن نتعافى منه، وإن بشكل أقل إن لم

نُصب منه نصيبًا. الحب هو النعمة الوحيدة والأولى على الإطلاق.

يجب ألا نرفع سقف آمال الأمهات. ولأكون صادقًا معكم فيما يخصني، فلم يكن هذا الشعور عندي على كمال يُعتبر، بل كان على وضع مختل لا ينكر. لكنها أحبتني كما لم يحبني أي شخص آخر، أحببتها بدوري، وما زلت على وفاء لحبها إلى حد الجنون. بمجرد وفاتها، أويت إلى نفسي نواسي بعضنا على نحو سريع. وما كنت لأستكين إلى نفسي وهي على قيد الحياة. وعلمتني في الأخير أن أحب، ولو كان ذلك على نحو سيء، وهذا ما يجب على الأم أن تلقّنه لأطفالها في بادئ الأمر.

بإمكان الآباء أن يعربوا عن حبهم كذلك، وأن يحبوا إلى حدّ الجنون، وهذا أمر لسنا بغافلين عنه. وهو الأمر الذي خبرته بما قاسيته، بوصفي أبًا هذه المرة، من صنوف الكرب، والقلق، والرعب في بعض الأحيان. فالحب يُعبّر عن السرور، كما قال بذلك أرسطو (Aristote)[45] وسبينوزا، وهو ما أؤمن به، وهذا ما أسهبت في تبيانه أكثرَ من مرَّةٍ. ومن شأن هذا أن يجعله أكثر عرضة للتعاسة أو الكرب. هل ثمة ما يؤلم أكثر من السعادة التي انتزعت منك؟ هل ثمة ما يثير القلق أكثر من السعادة التي تكون عرضة للتهديد؟ كيف لك إذا حدث أن كان الشخص الذي يسرّك وجوده، والذي يكون

---

(45) - أرسطو طاليس والذي يلقب أيضا بالمعلم الأول (384-322 ق.م)، يعتبر من أشهر فلاسفة الإغريق، وله بالخصوص ولأستاذه أفلاطون يدين تاريخ الفلسفة عامة بدين كبير. وإليه يعزى فضل تقعيد مباحث الفلسفة النظرية وفروعها (الميتافيزيقا، الطبيعة، الرياضيات)، والفلسفة العملية (السياسة، الأخلاق، الاقتصاد)، فضلا عن الأورغانون، وهي عين المباحث التي ستحكم الأبنية الفلسفية لاحقا نقدا ومراجعة.

في سعادته سعادتك، يكتوي من نزيف المعاناة، ألن تتمزق لتمزّقه هذا؟ «أن تكون أبًا، كما يقول فكتور هوغو، يعني أن تهب الرهائن للقدر». عبارة أثيرة كانت تجري على لسان والدي (لا بد أنه قد أحبنا أيضًا، وإن كان بطريقته الخاصة...)، وهذا ما أردّده بنفسي أحيانًا. أن يكون الإله أبًا، هو الدين الوحيد الجدير بالاهتمام. ولكن الآباء ما هم بآلهة، ويتلون صلواتهم سدى.

مثل هذا الحب –حب الأم، حب الأب– لا يشبه أحدا غيره. فإنه، ومع ذلك، ليس من غريب الصدف أن تكون الكلمة التي نستخدمها للتعبير عن الحب، هي نفسها في جميع اللغات تقريبا، الذي نكنه لأصدقائنا، لزوجاتنا وأزواجنا، للرجل أو المرأة التي نبدي لها أو له حبا... «أحبك! »[46] هذه الرسائل الصادمة التي يتردد رنينها في الهواتف المحمولة، في نيويورك، خلال أحداث 11 سبتمبر 2001، قبل الموت مباشرة، هي ما كان في وسعهم أن يبعثوا بها، من دون تمييز، إلى الآباء أو الأطفال، إلى الزوج أو الحبيب، إلى الصديق أو الأخ، وكان الشيء الوحيد الذي يمكن أن نعرب عنه، الشيء الوحيد الذي كان أكثر إلحاحا على أية حال، والأكثر ضرورة، الشيء الوحيد الذي يمكن أن يبرر الوجود من دون التماس مبرر، أو يتحول إلى سد مانع. ليس صائبًا القول بأنَّ الحب أقوى من الموت. ولكن من دون الحب – وقبل كل شيء من دون حب الحياة– لن يختار أحد أن يحيا، كما قال أرسطو، أو أن هذا الخيار (على افتراض

---

(46) - وردت بالانجليزية « I love you ! ».

أن المرء فعل ذلك على أي حال، على سبيل المثال، خوفًا من الموت) لن يكون ذا قيمة معتبرة. الحب هو الذي يستحق، لأنه لا توجد أي قيمة إلا به. فالحب هو الذي يجعلنا نحيا، وهو وحده الذي يجعل الحياة محبوبة. كتب سبينوزا «بسبب ضعف طبيعتنا، من الضروري أن نحب بعض الأشياء، وأن نتحد معها إن قدّر أن يكون لنا وجود». فنحن على ضعف شديد من أن نعيش بمفردنا، ونحن على ضعف كبير لنعتمد على أنفسنا حصرًا. أو ليس من فرط الأنانية على الإطلاق أن تجد المرء يحب سوى نفسه؟ فيكون كمن فصم نفسه عن العالم وعن الإنسانية، وكمن يرى حصرًا نفسه في مرآته، ويكون حبيس بؤسه ومخاوفه. ألا يروق لك أي شيء؟ يعني أن تعيش من دون فرح، من دون متعة، من دون رغبة – سيكون كمن مات بالفعل. هذا ما يطلق عليه أطباؤنا الكآبة، بالمعنى النفسي للمصطلح (لا يتعلق الأمر بـ«سعادة أن يكون المرء حزينًا» من حيث هو حال من أحوال الإنسان، بل بـ«فقدان القدرة على الحب» على حدّ تعبير فرويد، وهو الأمر الذي لا يقود سوى إلى هاوية العدم)، وهو أدنى من أن يقال عنه فلسفة، ولو كانت عدمية، بقدر ما يعبرّ عن حالة باثولوجية. مرض مميت، حالة طوارئ نفسية: الانتحار، ما لم يعالج، يمثِّل تهديدًا على المدى القصير جدًّا. لا يمكننا أن نحيا من غير حب، وهذا الوهن هو مبعث قوتنا، وهذه القوة- القدرة على الحب: الرغبة، غريزة الحياة[47]، الفرح- هي نقطة الوهن الوحيدة التي

(47) - وردت باللاتينية (conatus).

تستحق منا العناء.

لن أكرر القول في ما سبق وبينته في موضع آخر، حينما هممت بالحديث عن الصور الأساسية الثلاثة للحب: الإيروس (éros) (الفراغ العاطفي، الشغف، الحب الذي يسلب العقل)، الفيليا (Philia) (الصداقة، الحب الذي يُبهج ويُشاطر)، الأغابي[48] (agapè) (الإحسان: الحب الذي يهب ويصفح، الذي يأوي ويؤالف)... ثمة حاجة إلى أن نطلق اسما مغايرًا على الحب الأبوي، فهو مختلف تمام الاختلاف عن غيره، طالما أنه فريد من نوعه (وهو أكثر الأنواع انتشارا ومعرفة، وفي ذلك ميزة إضافية لفرادته...). ليست للكلمات والمقولات في هذا المقام أهمية قصوى. غالبا ما بدت الحدود، على سبيل المثال، ما بين العاطفة والصداقة، على آية من الضعف والتقلب، ولم تكن الرغبة الجنسية نفسها بكافية، كما وددنا في بعض الأحيان، لتحدث الفارق. قد يقع لي أن أعرب بشغف عن محبتي لهذا أو ذاك من أصدقائي من صنف جنسيَ، من غير أن أشعر بأي رغبة تجاهه، مثل تلك الرغبة الهوجاء التي أكنها لهذه المرأة أو تلك التي لم أحبها في يوم من الأيام، أو قد يحدث معي أن أتيّم بهذه المرأة أو تلك، من غير أن أستشعر تجاهها بأية رغبة خاصة تذكر... وقد حدث لي أن أحببت بشغف تلك التي وددتها لنفسي أكثر مما وددت غيرها، محبوبتي، حبيبتي، أختي، زوجتي التي كانت، وستظل على الدوام، أفضل خلاني... ليس ثمة، على حد علمي، ما

(48) -وهي مفردة فلسفية إغريقية (ἀγάπη)، التي تحيل على الحب غير المشروط، والذي هو من طينة غير إلهية. وهذه المفردة ترادف مفردة الإحسان في المسيحية.

هو أجمل من أن تجد زوجين وقد حفتهما السعادة، وربما قد نتجرأ ونقول حينما لم يسعفهما الحال دوما على أن يكونا على سعادة دائبة. لو أجاد فعل ذلك من كانت الحرية مذهبا لهم (Les libertins)، أو من تبرأ من الانتماء للعشيرة البشربة (les misanthropes)، فالبشرية، كما يردد صديقي **تيزفتان تدوروف**[49] (Tzvetan Todorov) لا يستقيم لها التمام والكمال إلا بوجود شخصين، فلا غرابة أن يكون الزوجان، كما قال ذات مرة **آلان**، هما منقذا الروح.

وصف دينيس دي روجيمانت[50] (Denis de Rougement) حال الحب، فقال عنه: «الوقوع في الحب حال من الأحوال، فالحب هو رديف الفعل». حينما يصون الحب عشّ الزوجية، ويستمكن في حياتهما، فإنه يتيح لنا المرور من هذه الحال (الحب-الشغف: الذي نكابده) إلى هذا الفعل (الحب-الممارسة: هو ما نفعله، هو الغرس الذي نغرسه، وما نتكبّد عناءه). من يكون في حلٍّ من أن يكون شاهدا على حصول التقدم، فإما أنه صغير في العمر، أو أنه جاهل بالأمر. الوقوع في الحب، يعني أن تفتقر إلى شخص ما لتسمعه: أنا بحاجة إليك[51]، أنا أحبك[52]... الحب هو عدم الافتقار إلى أي كان: يعني الاستمتاع، الانتشاء بالحاضر، بالوجود، والحب. بين

---

(49) - مفكر وناقد وسيميائي فرنسي من أصول بلغارية (1939-2017)، اشتهر بادئ الأمر في ميدان الدراسات النقدية، قبل أن يلتفت إلى مجال التأليف الفكري في المرحلة المتقدمة من حياته الفكرية.

(50) - هو فيلسوف وكاتب سويسري (1906-1985).

(51) - وردت باللغة الإنجليزية (I need you)

(52) - وردت باللسان الإسباني (te quiero)

هذين القطبين، ينبغي للمرء أن يلتمس الحذر، لا أن يطلق العنان للفارق. فلا شيء قابل للنسبية أكثر، ولا شيء عرضة للتقلب أكثر من قصص حبنا. ثمة دوما نقص يسكن دواخلنا، وتناه يطوقنا، ثمة دوما الشغف والخنوع والتبعية، تجد دوما الطفل الصغير الذي يبحث عن الحضن أو الحب. يمتلك دوما ما يكفيه من القوة والفرح ما يغنيه ولو قليلها. قال سفامي براجناناباذ[53] (Svâmi Prajnânpad) «الطفل دأبه الأخذ، والراشد ديدنه العطاء»، وهذا يوجز لنا طبيعة المسار. قصة الحب تبدأ عادة بحب الشخص الذي ليس بحوزتنا بعد، الشخص الذي نفقده، والذي نودّ أن نتملّكه ونحافظ عليه. ما فتئ يتعلم كيف يستكين، في أفضل الحالات، بما لم يكن في إمكانه أن يدركه في يوم من الأيام؛ وجود الآخر، حريته، وحبه... الزوجان ما هما بنقيض الوحدة: إنما هو مسلك للعيش سوية، من غير إنكار ولا تنكّر لها، من غير إلغاء وخيانة تطالها. كتب ريلكه (Rilke)[54] «بقدر ما نحن وحدنا، تنتفي المسافة بين الحب والموت»، ونفس الأمر يقال عن الوحدة والحب، في المدى – المحدود دوما– حيث نعيش.

يبدأ كل هذا مع الحياة الجنسية –في أحلك وضع يجمع الرجل والمرأة، في وضع أكثر حيوانية، وأكثرها سادية، وهو مع ذلك أكثر إنسانية–، وهو ما يدركه الجميع، ويتخذ منها سبيلا للمتعة

(53) - هو معلم روحي بنغالي (1891-1974) انتشرت بعض تعاليمه الروحية في الغرب "الفنداتا" (vedânta).

(54) - راينر ماريا ريلكه (Rainer Maria Rilke)، شاعر وكاتب نمساوي (1875-1926)، يعتبر من أبرز شعراء الألمان الذين أسهموا في تأصيل الحداثة الشعرية.

الإضافية، ومصدر انفعال آخر يأخذ بلبّنا، يثير الخوف فينا، يحركنا ويتحرّك بنا. ما أروعه من مناظر بذيئة للأجساد، تكرار للرغبة يبهج ويسرّ، وحميمية مبهرة تلك التي تخلّل المداعبات. متعة مبهرة. العنف على آية من الكثرة، سيل من العذوبة، وفيض من الحنان! قدرة على الاستمتاع باللحظة. قدرة على الانتشاء. الجنس ليل وشمس. الحب- حينما يكون هناك حب- هو نوره ومستقره.

أحبك: أنا في حاجة إليك وإلى حُبّك، إلى جسدك وابتسامتك، إلى نظرتك ومأمنك. هل لتكون سعيدًا؟ ولما لا، متى سنح ذلك. والقدرة على التحمل حينما لا يكون، عندما تفتقد السعادة. لو كان الحب ذا قوة جبارة، هل سيكون من طينة إلهية. أو ليس الضعف الذي هو عليه هو الذي يجعلنا بشرًا، بل يجعل منّا بالأحرى نقبل بغير حد على الحب.

أمَّا أن يكون الحب من طينة إلهية، فهذا أمر مشكوك فيه (بما أن وجود الحب يمكن التحقق منه، بينما وجود الله لا يمكن التحقق منه)؛ غير أن الله إذا تحقق وجوده، فهو بذاته محبة، وهذا ما لم يكفّ العقل البشري، على الأقل منذ ألفي عام، في التفكير فيه. وإلا كيف أمكن لنا أن نحبّه ونؤمن به؟

كأني ألتمس ضربًا من التجسيم هنا، ولعمري إنَّ هذا هو اعتقادي، وهذا ما يجعل منّي ناكرًا، غير أنه يفصح عن الشيء الكثير حول الإنسانية وما آلت إليه. ليس الله هو المحبة، وإنما الحب الذي يُضمره الإنسان هو الذي يجعلنا نتمثّل الله حلما.

«قد يجعلنا مثل هذا الحب نتساءل إن لم يكن مصدره من الله، فمن أين أتى؟»، من شأن هذا أن يعيدنا إلى نقطة البداية: قد يكون مصدره الله أو الأمهات. أمَّا عن شعوري فلم يستو على كمال معتبر، بل كان على قدر كبير من الهشاشة والتعاسة – مع ذلك فهو لا يخلو من محبة كبيرة- بشكل يفسح لي الإمكان لكي أعتقد بشيء آخر. فالحب، حتى في شكله الأضعف، وحتى في أسقم وضع له، أفضل من كل قدرة مطلقة من شأنها أن تكون خالية من أي حب.

وعليه الحكم على الدين هو من شأن الحب، وليس من شأن الدين الحكم على الحب. هذا ما أسميه روح المسيح- روح الابن- وهو نقيض التعصب.

(VI)

باسم الابن



باسم الابن

فأن أتحدث باسم الابن، فكأني أتحدث باسمي الشخصي. هذا التفرد، الذي هو الأول من نوعه، الأكثر حسما، هو نصيب كل واحد منّا. فأيُّ رجلٍ أو امرأة، لم يكن ابنًا أو ابنة ذات مرة؟ نستحضر كلمة جول رونار (Jules Renard)[55] التي لها مفعول الحامض: «ليس كل شخص لديه نفس الحظوة أن يعيش تجربة اليتم». غير أن الأيتام هم في كل الأحوال أبناء (ما كانوا ليكونوا أيتامًا لولا ذلك)، وهذا ما يدين به كل إنسان، ولو كان من أبوين مجهولين، للوجود. فلا يُجبر أحد أن يكون أبًا أو أمًّا، ولا يعفى أحد من أن يصير ابنًا أو بنتًا.

ما هو الإنسان؟ هل هو ذلك الحيوان صاحب رجلين، لا يمتلك ريشًا، حسب أفلاطون (Platon)[56]؟ أو هو ذلك الحيوان السياسي، كما قال أرسطو؟ أو هو الحيوان الناطق؟ العاقل؟ الضاحك؟ لا شيء من هذا كله. ربّ امرئ في منتهى البلادة، قد لا يجيد الكلام قطعًا، قد لا يتعقّل أبدًا، وقد لا ترى الضحكة تعلو محيَّاه

---

(55) - جول رونار كاتب ومؤلف مسرحي وروائي فرنسي (1864-1910).

(56) - أفلاطون فيلسوف إغريقي مشهور (427-348)، وهو أستاذ ارسطو، وكان له إسهام في مختلف حقول الفلسفة من علم الطبيعة وما بعد الطبيعة، وفي قضايا الأخلاق والسياسية والتربية والجمال، وقد عرض جل آرائه الفلسفية في شكل محاورات.

دومًا... غير أن هذا لا يقلّل من قيمته كإنسان، بما أنه ثمرة رجل وامرأة. مهمة علم البيولوجيا بالمعنى الصارم في هذا المقام، هو أن تعهد بالإنسان من حيث هو سليل رجل. كل مولود ينتسب إلى امرأة ولّادة، هو بالنسبة إلينا يعبّر عن الولادة عينها. يمكن لنا أن نتصور، لاريب أنه قد نفلح ذات يوم من الأيام في إبداع رجل لن يكون ابنًا بعد الآن، وامرأة لن تعود ابنة. يتراءى لي أن هذا هو الأمر عينه الذي يقع علينا أن نكون سدًّا منيعًا له. وأمّا عن السبب؟ لكي نحافظ في الإنسان على ما له صلة بالبنوة، وهو الإنسان عينه؛ أعني إنسانية الإنسان. فالبشرية هي حقيقة من حقائق الطبيعة، والإنسان لا يصبح إنسانًا إلا عبر الثقافة. وإنه لعلى غاية من الأهمية أن نصون هذا الرأسمال المزدوج، وإعادة إنتاجه وتحويله: الرأسمال البيولوجي (الجنس البشري)، الرأسمال الثقافي (الحضارة)، والبنوة تجعل إمكانية العبور والتوافق بينهما أمرا ممكنا. والإنسانية هبة، تعلّق الأمر بالجسد أو الروح. الابن والابنة هما من يستلم. وبادئ الأمر نحن دائما ما نستقبل. لن يكون لدينا شيء آخر لنهبه. من أين تبدأ الأسرة، وأين تنتهي؟ هذا الأمر يبقى رهين الزمن والحضارات. وجهة نظري في المسألة، وهي ليست في الأحوال إثنولوجية، هي بكل بساطة: تبدأ الأسرة مع الطفل. لهذا السبب لا نقطة نهاية تقف عندها، طالما أن الأطفال يعيشون أو يخلفون بدورهم أطفالا. والأسرة التي ليس لديها أطفال، أليست بأسرة: هي عبارة عن زوج وزوجة. في حين أن الأم العازبة التي تتعهد بمفردها أطفالها، تنتمي بلا شك إلى حيّز الأسرة. والشخصان الراشدان اللذان لهما طفل بالتبني، يكوّنان

أسرة. والزوجان اللذان يتخليان عنه، لم يعودا كذلك. فالأسرة هي البنوة التي وقع الرضى بها، والاضطلاع بتحمل شؤونها وتنشئتها: إنها البنوة وفقًا للروح، وهي مآب روح البنوة.

حقيقة الأسرة، كما يشير ليفي ستراوس (Lévi-Strauss)[57] هي حقيقة عالمية، وهذا ما يربطها بالطبيعة. لكن شكلها ليس كذلك، وهذا ما يشدّها بالثقافة. كيف لنا أن نفسِّرَ نفس الظاهرة – الأسرة- أن تكون جزءًا لا يتجزأ من عالمية الطبيعة وتعكس في نفس الوقت خصوصية الثقافة المنظمة؟ وهي أن الأسرة تدرك على نحو ملموس- ليس مرة واحدة ومن أجل الجميع بالمرة، ولكن في كل جيل، ولكل فرد من كل جيل- أن حظر زنا المحارم لا يسهم سوى في إرسائه على نحو صوري أو سلبي. العبور من الطبيعة إلى الثقافة، من الإنسانية البيولوجية إلى الإنسانية الثقافية. دعونا نقول: من بنوة من جسد إلى بنوة من روح، من إنسانية تعبّر عن النوع إلى إنسانية تعكس القيمة.

لطالما رددنا في عقد الخمسينات من القرن الماضي بأنه لا وجود لأثر للطبيعة البشرية. قد يكون الإمعان في الإعراض عن البيولوجيا هو المبعث على ذلك. إذا كان الجنس البشري غير عابئ، ولو كان هذا الاهتمام جزئيا، بالطبيعة، فلماذا ترانا على غاية من الاهتمام بالتعديل الوراثي؟ ما هو في حكم المؤكد، هو أن هذه الطبيعة

---

(57)- كلود ليفي-ستراوس (1908-2009)، أنثروبولوجي وإثنولوجي فرنسي، ويعتبر كذلك ممن طوّعوا المنهج البنيوي في مجال الدراسات الأنثروبولوجية (الأنثروبولوجية البنيوية).

البيولوجية للإنسان (ما أصبحنا عليه من خلال الجينات) لا تَعِد بأي ضمانة تذكر بالنسبة للبشرية. بهذا المعنى، وبه فقط، أمكن لنا أن نقول إنَّه لا توجد طبيعة بشرية: ليس لأنه لا يوجد أي شيء طبيعي في الإنسان، وهو أمر قابل لأن يدحض من قبل البيولوجيا، بل لأن ما هو طبيعي فيه ليس بشريًّا (فالإنسان العاقل هو مجرد حيوان مثل أي حيوان آخر)، ولأن ما هو بشري فيه ليس طبيعيًّا (فلا قيمة، ولا حضارة يمكن أن تكون قابلة للانتقال بطريقة وراثية). لا عجب أن يكون داروين[58] (Darwin) أكثر إنسانية مما كنا نعتقد. ليس الإنسان سليل القدرة، بل هو الذي يرتقي من خلال الثقافة، بقدر ما يرتقي بفضل الطبيعة (مع أن الفضل في إمكان ذلك، بطبيعة الحال، يعود إلى الطبيعة). وبما أن لا وجود لانتقال وراثي للصفات المكتسبة، فإن التربية حاسمة للغاية. يقتضي أن تُرمّم البشرية لحظة كل ولادة، وهذا ما يسمى تربية الطفل. لكن ما الذي ينبغي عمله لنجعل منه إنسانا؟ رجلا آخر، امرأة أخرى: أسرة. «لا يلد الإنسان سوى الإنسان»، كما يطيب لأرسطو أن يردده دوما. وهو القائل أيضا، ولو كانت إشارته لهذا الأمر معدودة، بأن «الإنسان حيوان اجتماعي». فما علينا إلا أن نعقد القران بين طرفي السلسلة، الجانب البيولوجي والجانب الثقافي، لينصهرا ضمن الأسرة. الإنسان يُخلّف الإنسان، وينشأ الإنسانية إنشاء: فالأسرة هي موضع هذه الولادة

---

(58) - تشارلز روبرت داروين (Charles Robert Darwin) عالم أحياء إنجليزي (1809-1882)، واكتسب قوله بنظرية التطور أو الانتخاب الطبيعي التي طرحها في كتابه الشهير أصل الأنواع شهرة وردودا واسعين.

والنشأة.

فما قُدّر لنا عن طريق التحريم (منع زنا المحارم)، ليس بعبث، بل هو الموضع التي تتحول فيه الرغبة – عن طريق المحرمات، عبر عملية التسامي – إلى حب. لن يكون هناك حب خلاف ذلك. لن يكون هناك سوى الغريزة. لن يكون هناك سوى الرغبة. سيصبح أوديب رفيق الجميع. ستكون ليلته هي النبراس الذي يضيء طريقنا.

ليس عليك أن تعلق أمالا عريضة على الأسرة، ولا يجدي نفعًا أن تكنّ لها كرها. نستحضر جيد[59] (Gide)، وقوله «لعائلته، أني أمقتكِ»، وهو القول الذي فُتِنَّا به إبّانَ مراهقتنا، إلى الحدّ الذي أنسانا جانب الحقيقة فيه. فالعائلة أيضًا أسْرٌ، ينبغي الفكاك منه. ما ترانا نصنع بدلا من ذلك؟ لا يخلو اليُتم والعقم بدورهما من عيوب.

ما كانت الأسرة نقيض الوحدة. أوّلًا لأن كل واحد منا يعيش وحيدًا منعزلًا في كنف أسرته، وثانيًا لأنَّ الأسرة لم تخلق إلا لتُترك وتُهجر. فتجريم زنا المحارم، كما يوضح علماء الإثنولوجيا، لا تكمن أهميته فيما يمنعه بقدر كونها فيما يفرضه: التبادل الجنسي مع غيره من الأسر، وعنه يتمخّض المجتمع (عبر قيام التحالف بين الأسر). ما ليس بإمكاني أن أجده في داخل أسرتي –الاستمتاع الجنسي بجسد الآخر– يجب أن أبحث عنه في الخارج، في عائلة ثانية، وهذا ما يسمح، ويستلزم تكوين ثالثة... «يلاحظ ليفي ستراوس، على أي

(59)- أندري جيد(André Gide) كاتب وروائي فرنسي(1869-1951)، حصل على جائزة نوبل في الآداب سنة 1947.

حال، أن القول الوارد في الكتاب المقدس: «"لا محالة أنك تارك أباك وأمك"، يُقدّم قاعدته الذهبية (أو قد نقول بالأحرى يوفر قاعدته الصلبة) لحالة المجتمع». الأسرة هي شرط الحياة الاجتماعية: فهي بفعل البنوة تمثل الطبيعة في الثقافة، ومن خلال تحريم زنا المحارم تمثل الثقافة في الطبيعة. إنها الحياة التي تسبق القاعدة وتخضع لها: وإذ هي تحقّق العبور من الطبيعة إلى الثقافة، فإنها تفرض الانتقال من الأسرة إلى المجتمع.

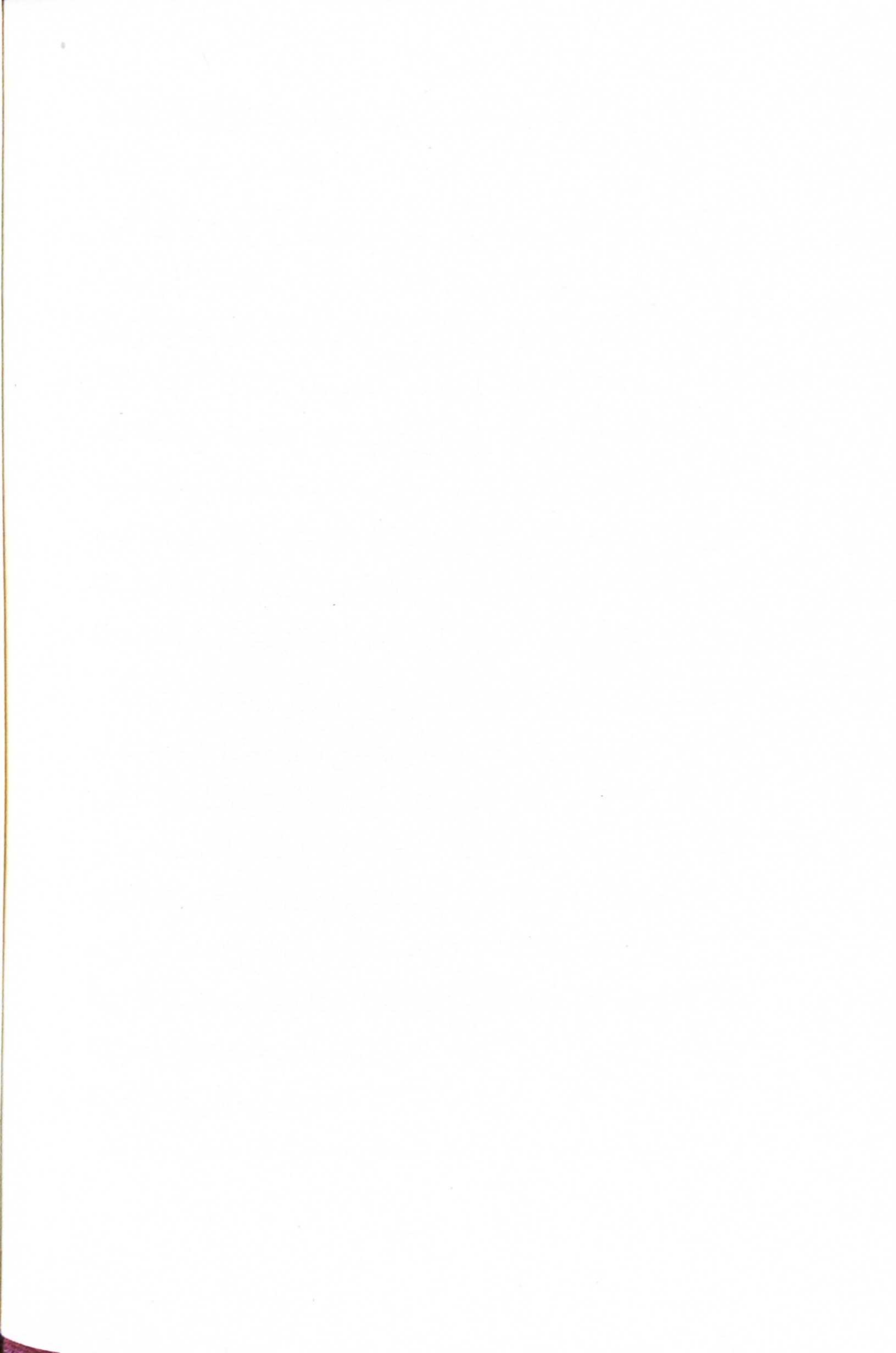
ينتهي المطاف بالأسرة التي تمنح كل ما لديها للطفل، إلى أن تهب طفلها نفسه. إلى من؟ بالتأكيد إلى رجل آخر، إلى امرأة أخرى، لكن أيضا —وفي المقام الأول-لأجله. هذه الهبة الأخيرة، هي أجمل هبة، وأصعبها، ما نسميه حرية. وهذا الأمر لا يجري على المجتمعات، وخاصة بالنسبة للفتيات، ولكنه أمر حاصل في مجتمعنا، وهو الأمر الذي يقتضي أن يكون، أكثر فأكثر، في أرجاء العالم. تهب الأسرة وتفقد؛ فهي تمنح لكي تخسر من أجل أن يذهب الطفل إلى حال سبيله، وهذا هو النصر الوحيد الذي يمكن أن يأمله الآباء.

فالأسرة مُثقلة الأعباء، مرهقة بالمزيد من التوتر والمعاناة، والكراهية في بعض الأحيان، وأجد نفسي في الوضع المناسب، شأن غيري، الذي يسمح لي بمعرفة ذلك. والأسرة، في نهاية المطاف، قديمة قدم الإنسانية، وهذا ما ينبغي ألا يغيب عن أذهاننا. كيف لنا أن نرى في هذا الأمر مجرد صدفة؟ لا كائنًا بشريًّا، كان يمكن أن يكون، من غير وجود الأسرة، وسنظل مدينين لها، بالضرورة، أبد

الدهر: القانون الذي يُحرّر من الرغبة، والحب الذي يُحرّر من القانون.

كيف لا نفكر في العهد القديم والعهد الجديد؟ هذا هو الشيء الجميل في هذا الدين الذي كان لنا: للروح القدس أسرة، ويعتبر في نفس الوقت ابنا. كان هذا هو الشرط الذي يحول دون أن يكون إلها فقط، مثل أوّل صنم قادم، بقدر ما هو إنسان. وهذا ما يبرر عنوان هذا الفصل. قد يحمل «باسم الابن» على معنيين: باسم الابن على نحو ما نحن عليه، وهو الأخلاق؛ وباسم الابن بمقتضى ما عندنا، وهو الحب. وبين الاثنين؟ الإخلاص الذي يفرض أن ننقل ما تلقيناه، وعلى نحو أفضل متى كان في وسعنا ذلك. كلمة الابن، كلمة المؤمن الصادق: «لا تظنوا أني جئت لأبطل، بل لأكمل».

هذه كلمات جليلة أبديها على كل مرة، مع كامل اعتذاري. سرعان ما سيحجُب الأطفال، من حسن الحظ، عن كل هذا بصرخاتهم، وهذا ما يجعلنا نلوذ بالصمت... لكننا، نحن الآباء، على معرفة حقة بما هو عليه، وأن هذه الكلمات الجليلة تأبى، مع ذلك، إلا أن تقول شيئا أساسيا عن تجربتنا، عن التعب الذي أخذ منّا، كلمات تفصح عن شيء ما على غاية البساطة، وعلى قدر كبير من التشويش. لما؟ مُنيتا أن تتمظهر عظمة الإنسان في هشاشة الطفل. إنها روح الابن، التي هي النعمة عينها، والروح الوحيدة التي أعرفها، والنعمة الوحيدة التي أؤمن بها.



(VII)

العمل





العمل

ثم هناك العمل، ومنه ما يُتعب، وما به نقتات، ومنه ما قد يهاتفك ومنه ما يفسح لك فسحة الراحة. لا يعرف الأطفال عنه، خلال السنوات الأولى، شيئًا يذكر. الحياة واللعب كافيان شافيان بالنسبة إليهم. في المدرسة سوف يكتشفون اللعب، سيكتشفونه كنوع من اللهو الجديد، الذي لا يقتضي اللعب، بقدر ما يقتضي العمل. الفاصل بين الاثنين؟ هو، إلى حد ما، الانتقال من مبدأ المتعة إلى مبدأ الواقع. حتى لو أمكن الاستفادة من اللهو لشيء آخر (الاسترخاء، التعلم، الممارسة...)، فهو كاف كهدف في حد ذاته، للمتعة التي نستكشفه فيه. العمل، حتى الذي نستلطفه، وهو أمر قلّما يحصل، يهدف إلى تحصيل بعض المنافع الخارجية (مُنتج، تقدم، أجرة...)، بما يشفع للوقت والطاقة اللذين يستغرقهما منا. في اللهو الغاية الكافية، والعمل هو وسيلة ضرورية. اللهو، إذ قدرنا أمره على نحو ما هو، لا ينجم عنه أي أثر رجعي (ما أقدم عليه أحد الأطراف، يمكن للطرف الآخر أن يتجاهله أو يدفعه)؛ العمل على نقيض ذلك، يتحققّ بشكل فعلي. العمل الذي لا يصدق لا يُلغى، بل يستدرك

بعمل ناجح. القطعة المفقودة لا يتم التملّص منها، بل تستبدل بالقطعة التي لا تشوبها شائبة. التلاميذ يعلمون علم اليقين: العلامات ترفع ولا تحط من قدرهم. لقد خبر البناؤون هذا الأمر على نحو جيد، عندما يجدون أنفسهم مضطرين إلى هدم، متوسلين مطرقة ثقيلة وإزميلا، طرف من الجدار الذي شابه عيب بعد تشييده. الأمر لا يتعلق بمجرد عمل يحلّ محل عمل آخر، وكأنَّ شيئًا لم يكن، بل إنه جهد إضافي يبذل، هو تعب مضاف، ومزيد من الوقت والمال يبذل، وهو ما يثير حفيظة رب العمل والزبون معا... العمل، ما خلا بعض الاستثناءات، ليس لهوًا. فهو يتطلب قدرًا من الجهد، والجدية، والمردودية. وهذا ما يجعلنا ندفع مقابلًا له. أن نعمل بشكل أو بآخر؟ هو أن كل عناء يستحق أن يؤجر. وهذا ما ينطبق إلى حد كبير-على الأقل بمجرد أن نخرج من العبودية أو من العمل التطوعي - على العمل. «عليك أن تكسب عيشك من عرق جبينك...»، غير أن رغيف العيش هو الذي يستحق، هو المطلوب والمستطاب. العمل ليس سوى وسيلة: فهو صالح فقط بشرط أن يكون مفيدًا، وأن يكون نافعًا، نفعًا مباشرًا أو غير مباشر، لشيء آخر غير العمل. العمل من أجل العمل، ألن يكون ضربًا من الجنون، كمن شق على نفسه وكبّلها تكبيلًا. والحال هذه، ألن يكون التقاعس عن العمل خيارًا أفضل.

لسنا على صواب حينما نعدّه غاية في ذاته، ولا حينما نعتبره قيمةً أخلاقية. هذا ما تشهد عليه الإجازات والمعاش. العمل؟ هو أمر لا مفر منه، لكن من يعمل من أجل لا شيء؟ من لا يرتضي لنفسه

الراحة، والترفيه، الحرية؟ العمل حينما يعتدّ به في حد ذاته، لا قيمة له. لهذا السبب نجزل له العطاء. يُصرّف. لهذا السبب يتطلّب الراحة. ليس له أي قيمة (أخلاقية)؛ وهذا ما يجعل قيمته (قيمة سوقية). فهو ليس من باب الواجب، لهذا السبب له ثمن.

القيمة، هي الجديرة بالتقدير في ذاتها. الأمر يصدق على الحب، الكرم، العدالة، والحرية...أن تحب، وتسأل عن المقابل؟ حينئذ لم يعد الأمر يتعلق بالحب، وإنما بالدعارة. إذا أردت أن تكون مكرّما، عادلا وحرا، فهل لك أن تؤدي مقابلا؟ حينئذ لن يتعلق الأمر بالكرامة وإنما بالأنانية، وليس العدالة وإنما التجارة، وليس الحرية وإنما العبودية. أن تعمل؟ فإنك تطلب شيئًا ما، وبالطبع فإنك على حق فيما تطلب. وقد تجد، في غالب الأحيان، أن ما يمنح لك مكافأة على جهدك لا يسد حاجاتك (وهذا أمر مفروغ منه، فالأمر ليس هبة، وإنما تبادلا)، وأنت تعاين ما هو مثبت في كشف الراتب الخاص بك، في فاتورتك، أو في تحديد الأتعاب المقدر لك... نحن بإزاء سوق العمل، يخضع شأن أي سوق لقانون العرض والطلب. كيف يمكن أن يكون العمل قيمة أخلاقية، والحال أنه معروض للبيع؟

يحدث أننا نعمل دون أن نتقاضى أي مقابل. لكن هذا لا يعني أننا نعمل من أجل لا شيء، بل على العكس من ذلك! فهذه المرأة التي تقوم بأشغال النظافة في منزلها، وهذا العامل الذي يتولى مهمة صيانة منزله بنفسه، هل كان لهما أن يقوما بذلك مجّانًا لو تعلق الأمر بمنزل شخص غريب؟ حقّا إنه عمل لا يخضع لمنطق السوق، ولكنه يبقى

عملا: نشاط ينتفع به، متعب وشاق، يخلق القيمة ويحافظ عليها. حتى من كان عمله على سبيل التطوّع يصدق عليه نفس الأمر. فمن عمل، فإن عمله يكون لأجل شيء آخر غير العمل (لسبب نرى فيه عين الصواب، وبحكم الصداقات التي تربطنا، أو تتحقق به تزجية للوقت). والعبد في هذا نفسه ليس باستثناء. فإن كان يعمل، فبعمله هذا يدرأ عنه شبح الموت: فهو يعمل، مثله مثل أي شخص آخر، لكي يعيش، وسيكون ضربًا من الجنون أن يعيش من أجل أن يعمل.

أدرك أرسطو، بإحساسه الفائق أن «العمل يفضي في نهاية المطاف نحو الراحة، بينما لا تفضي الراحة نحو العمل». فقد أخطأ أرباب العمل التقدير، حينما يعتقدون أن على المرء أن ينتهز لنفسه قسطًا وافرًا من الراحة ليلا لكي يقتدر على أداء عمله طوال اليوم، وأننا نغتنم عطلة نهاية الأسبوع لكي نحافظ على نفَسِ العمل طيلة الأسبوع، وأننا نحظى بالعطلة السنوية لكي يكون لنا السند على خوض غمار العمل على مدار العام... وحينما نتقاعد، لربما، نعدّ العدة للعمل طوال رحلة الموت؟ والحال أن العكس هو الأمر الذي يكون صوابا: حينما نشقى يوما كاملا في العمل، أو طرفا منه، فلكي نفلح في الحصول على سقف يأوينا ومتسع من الوقت لتزجية أمسياتنا؛ ونحن نؤدي عملنا طوال الأسبوع، لكي نغتنم عطلة نهاية الأسبوع على أحسن وجه؛ ونحن نعمل طوال السنة، حتى ندخر ما يكفل لنا أداء مصارف الإجازة السنوية؛ وأخيرا فإن المرء قد يقضي أربعين عامًا أو ما يقربها من العمل، حتى يستفيد من تقاعده... وهذا ما ينبغي أن يكون عليه الحال. الغاية التي نرومها من خلال عملنا

هو أن نرّفه عن أنفسنا، وأن ننعم بقسط من الفراغ (الأوتيوم بلغة القدماء)[60]، فهذا بيت القصيد في الحياة على نحو ما هي- الحياة التي تخصنا، أو تخص أحبائنا-، الحياة على نحو ما يؤمل أن تكون، الحياة على ما يجب أن تكون عليه ضرورة، لا من حيث هي حياة خاملة (بما يشمل الأنشطة الرياضية، الفكرية، السياسية، الفنية...)، بل حياة متحرّرة قدر الإمكان من القيود ومن كل ما ينغصّ العيش الهنيء. حضارة الترفيه؟ هي الحضارة عينها. خبرها القدماء أيضا، لهذا كان حولهم عبيد. الأمر متاح لنا، نحن الذين حالفنا الحظ حينما لم يعد بإمكاننا أن نمتلك عبيدا، لإعادة اكتشافها.

وهل لدينا وسع من الوقت لننعم بالوقت. ألا ترى كل هؤلاء الأشخاص الذي يغشاهم النوم وهو يستقلون قطارات المترو وإرْوِرْ (RER)[61] ذهابا للعمل وجيئة منه، ما يقطع الشك باليقين، وقد أخذ الإرهاق منهم كل مأخذ، أننا أبعد ما نكون، وحتى في مجتمعاتنا الحديثة، من أن نظفر بوقت فائض لنرفّه فيه عن أنفسنا. إنها خمس وثلاثون ساعة بالتمام؟ وما هذا بـأمر هيّن على الفرد، وخصوصا إن كان هذا العمل يقضّ مضاجعهم وشاقّ عليهم. حق أن نتساءل سؤالا وحيدًا وجيهًا، وهو إن كان ذلك كله كافيا بالنسبة إلى المجتمع، مفيدا له لكي ندفع عنه، ما لا يحتاج التأجيل، ونعني بذلك مظاهر الفقر والبؤس... وما أنا بأهل لقطع الحكم في هذا

---

(60) - {l'otium}، وهي مفردة لاتينية جرى تداولها منذ القرن الثاني قبل الميلاد للدلالة على وقت الفراغ وفسحة الراحة، والسكون إلى الذات.

(61) - وهي اختصارا للشبكة الحديدية الجهوية السريعة التي تربط مدينة باريس وضواحيها القريبة والبعيدة.

الأمر. ولكن حينما لا يطلب منا أن نحب العمل! وهذا ما لم يفعله أي ممن كان بحوزتهم سلطان روحي، لا المسيح (لم يقل، على حد علمي، مثل هذا القول: «فليكن العمل الذي يجمع بعضكم بعضا، آية على عمل الله»)، ولا سقراط[62]، ولا بوذا[63] (Buddha)...

كون العمل في غاية الأهمية، ومفيدا وضروريا، هذا واقع لست أنا الذي أنكره. ماذا تراني فعلت غير هذا طوال سنين عدة؟ غير أن قيمته تبقى مرتبطة بشيء آخر، له قيمة مطلقة أو قيمة في ذاته. ولهذا السبب بالذات فليست الأعمال جميعها، على نحو ما نعاين ذلك معاينة عابرة، على قدر متساو. هذا الطالب الذي يتعاطى بشغف مع دراسته، وهو أمر يبعث على الثناء في كل الأحوال، يفضّل ألا يتخذ أي عمل آخر، ذي طبيعة خبزية صرفة، مصدرا لتمويل مصاريفه... وقد تجد الآخر الذي لا يستشعر سوى شعور الضجر في الفصل الدراسي، لكنه تجده يختزن، لربما، من الإمكانيات التي تجعله يزهر مواهبه في المهنة التي يتمرّس على أبجدياتها أو تلك التي يطمح إليها... وهل العمل محمود؟ الأمر يتوقف على نوعية العمل، ولأي هدف، ومن أجل أي نتيجة. يا له من فرق، نصادفه هنا أيضا،

---

(62) - سقراط (Socrate) فيلسوف إغريقي (470-399 ق.م) يعتبر من أعمدة الفلسفة اليونانية إلى جانب أفلاطون وأرسطو، رغم أنه لم يخلف أعمالا مكتوبة، إلا أن تلميذه أفلاطون حرص على تدوين آرائه ومذهبه الفلسفي في الحياة في عدد من محاوراته.

(63) - هو مؤسس الديانة البوذية (563-483 ق.م)، وهي أقرب أن تكون فلسفة في الحياة تقوم على التجرد والزهد والتخلص من الشهوات والآلام، وتقول بالتناسخ، وهي ديانة تجد لها أتباعا وانتشارا في الهند والشرق الأقصى. وثمة من ينكر تشخيص شخصية بوذا في فرد بعينه، بقدر ما هي صفة تطلق على كل مستنير وحيكم يملك بعد البصيرة.

مع القيم الأخلاقية! ما جدوى أن تكون سعيدا، حرّا، عادلا؟ لا جوابًا جاهزًا ناجزًا، ولا يمكن أن يكون، ولهذا الاعتبار تنطوي السعادة والعدالة والحرية على قيمة مطلقة. ما جدوى العمل؟ لا غنى عن وجود الجواب، لأننا لا نَهمُّ بالعمل إلا ونحن نسلك هذا السبيل. العمال على يقين بأن العمل يستتبع أجرًا. وأرباب العمل على عاتقهم يقع واجب تأدية الحقوق المادية للأجير. والعمل، وأجزم القول، بأنه ليس سوى وسيلة وليس غاية. فالحياة والسعادة، والعدالة والحرية هي الأجدر أن تُقدّر، والعمل لا معنى له سوى أن يكون في خدمتها وليس أن يكون بديلا عنها.

«ألا ترى، ولطالما تردد على مسامعي هذا الأمر، أن هؤلاء العاطلين عن العمل لفترة طويلة: أن من فرط الإحساس بعدم جدواهم، فإنهم يفقدون الإحساس بكرامتهم...»، وإذا صح هذا الأمر، فهذا يؤكد أن قيمة العمل تكمن في منفعته، وليس يقدّر من حيث ذاته. لكن هل هذا يستقيم؟ لما لا نعرب عن استيائنا إذن، من بعض المليارديرات الذين يقتاتون من إيراداتهم؟ ما يفتقر إليه العاطلون عن العمل ليس العمل في المقام الأول، بل هو المال، هو العمل الجماعي، هو الاندماج الفعال في صلب المغامرة الإنسانية. أن يكون العمل مطلوبا، على وجه الضرورة والدوام، هو أمر لا غبار عليه. ولن تجدوا أي مشقة، إذا حالف أحدكم الفوز باليناصيب، فيما ستقدمون على فعله وستعرفون السبيل نحو الانخراط على نحو مختلف.

إذا اعتبرنا، علاوة على ذلك، أن جميع الرجال متساوون في الحقوق والكرامة، كما يقتضي أن نفكّر، فإنه من المستبعد أن تعتمد هذه الكرامة على العمل أو تفسح المجال لقياسه. فنحن، بكل بساطة، بحاجة إلى المال لكي نعيش، لكي نشعر شعورا يُفيدنا إفادة دائمة في العيش بشكل سعيد. هذا هو السبب الذي يجعل العمل ذا شأن عظيم، وإن كان أقل مما ينتظر منه (المتعة، الراحة، الحرية...) أو يتطلب (الشجاعة، الذكاء، الإبداع، الحزم، التضامن، المسؤولية...). العمل ليس قيمة من القيم (بالمعنى الذي يحمل على القيم الأخلاقية والروحية) ولا بفضيلة من الفضائل. كما أن حب العمل المتقن هو أمر محمود، فإن الكسل والإهمال هما أمران مذمومان. وهذا ما يجعل العمل مستحسنا، على الرغم من التعب الذي يصيبنا منه، لكنه لن يكون كذلك، شأنه شأن أي وسيلة، إلا حينما يكون مسلكا نافعا لشيء آخر.

أجد نفسي هنا كمن يصارع كل ما بدا له أنه بمثابة خطر أساسي داهم، على الأقل في الأوساط التي أتردد عليها، وهو الوسط الذي يُعتبر فيه العمل عبادة. لكن ينبغي أن نكون على حذر من أن ننهج في المقابل نهج الإفراط، وهو احتقاره والحط من شأنه. فما كنا من الذين يحبذون الكسل، بل من الذين يمقتون التوكّل. أهو أمر يغرينا؟ لاريب في ذلك. ولكن ربما أقل مما نعتقد. من منا لا يحلم في يوم من الأيام بأن يصبح قادرا على العيش من مداخيله؟ هل ستكون للعبة اليناصيب، وهي مجردة من الخيال، هذا العدد الكبير من المتعاطين لها؟ فالحظ يستهوي أقل من الراحة، والراحة أقل من

الترفيه، والمتعة، والحرية، عندما يكون العمل، بالنسبة إلى الجميع تقريبا، مرادفًا للإرهاق، والقيد، والاسترقاق. حب الحرية أقوى بكثير من مجّ العمل. حلم السعادة يستطاب أكثر من الخمول. ليس الجهد المبذول هو الذي يمثل عقبة في العمل، أكثر من الاغتراب، والاستغلال، ومن الوقت المهدور أو المسروق. ليس التكاسل هو الذي يستهوينا أكثر من الأنشطة الأخرى؛ الأكثر استقلالية، والأكثر خلقًا، والتي يغلب عليها الطابع الشخصي. وهذا ليس سببا وجيها لكي نجعل العمل قيمة مطلقة. لا ريب أن هذا هو حال «من يمتلك أموالا طائلة أيضا، على نحو ما يعترض علي صديق، مشيرا عليّ أن أمضي قدما في الكتابة...». غير أني توقفت عن التدريس (وخاصة تصحيح نسخ الامتحانات)، ما إن استطعت أن أستغني عن الراتب. ما يحدث وهو أنه ثمة عملا وعملا. أشار غالبرايث (Galbraith)[64] في كتابه أضاليل الاقتصاد (Les Mensonges de l'économie) إشارة تهكمية، بأن: «كلمة العمل تنطبق على السواء على أولئك الذين استنفدهم العمل، ويُشعرهم بالضجر ويقوض مضاجعهم، وعلى أولئك الذين يجدون فيه، كما هو ظاهر، كل المتعة، ولا يرون فيه أي إكراه... واستعمال الكلمة نفسها لكلتا الحالتين، لهو بالفعل أمارة واضحة على الوضع المضبّب والمظلل». تجد من العمل ما قد يحررك وما قد يقهرك؛ ومنه ما قد يجعلك تبدع ومنه ما قد يسلبك، ومنه ما قد يجعلك معلمًا وما قد يجعلك فقط

---

(64) - جون كينيث جالبريث (John Kenneth Galbraith)، هو عالم اقتصاد أمريكي الجنسية- كندي المولد (1908-2006).

تستهلك، تميّع وتُفسد... يحلم الكثير منا أن يحرّروا أنفسهم من هذا، لكي يتسنى لهم أن يكرّسوا أنفسهم أكثر لذاك. ومع ذلك، سيكون من الخطأ إن نحن بالغنا في هذا التعارض أو لم نأخذ به بالمرة. غالبا ما لا ينفصل هذان الصنفان من العمل، يمتزجان أو يتناوبان، في الحياة، وفي المهنة، لا يكادان يفترقان. عليك بتصحيح الأوراق؟ فهو حدث استثنائي سواء أكان تجسيدا لمتعة أو تعبيرا عن إثراء فكري. ولعله من حسن الحظ أنه نادرا ما تكون مهنة التدريس مجرد مصدر رزق أو سببا للرق. وهذا أمر يصدق كذلك على المهن اليدوية. وقد قيّض لي أن أعاين عملا صاغته أنامل بنائين في منتهى الروعة في بناء أنجزته في منطقة مورتيني (le Mortainais)[65]، وهم قد برهنوا بصنيعهم هذا عن فكرة سامية عن الإنسان، وعن الجهد وتقدير المهنة حقّ قدرها. لن يمحى من ذاكرتي الاعتزاز المهني الذي أعرب عنه ذاك العامل الشيوعي الطاعن في السن الذي انضمَّ إلى الاتحاد العام للشغل (CGT) عام 1936 وهو في سن السادس عشر، وهو يصادف نفس اليوم الذي ولج فيه إلى مصنع رونو بيلانكور[66] (Renault Billancourt): «أوّل شيء لُقّن لي في العمل النقابي، وهو أن المناضل النقابي الجيد، لا يمكن أن يكون عاملًا سيِّئًا. لقد استخلصت الدرس. لا مجال لكي نفسد أجواء العمل!» أن نكافح؟ هذا ما يجب أن نفعله. لكن هذا لا يغنيك عن كسب لقمة العيش،

---

(65) -تقع مقاطعة المورتيني في منطقة النورماندي في أقصى غرب فرنسا.

(66) - بيلانكور هي المهد الصناعي الذي احتضن أنشطة شركة رونو إلى جانب منطقة بولون (Boulogne-Billancourt) في جنوب-شرق منطقة باريس.

ولا يكفيك أن تؤدي عملك على النحو الأفضل، ولا يبيح لك أن تفسد حياة الآخرين. العمل، كما هو معتبر لذاته، لا يعد فضيلة؛ غير أن حب العمل المتقن غاية الإتقان، كما نؤكد على هذا الأمر من جديد، هو كذلك- لداعي الحب، لداعي الخير، من أجل الآخرين. إنه نقيض الإهمال، التواكل، الاستهتار، وهو بالفعل وسيلة مثلى لمقاومة الأنانية. التضامن شأن عظيم، لكنه لا قيمة له من دون استحضار مسؤولية الجميع. الترفيه عن النفس لا يقل قدرا وعلو شأن، لكن قيمته المثلى لا تتحقق إلا من خلال العمل- عمل المرء أو عمل الآخرين، وهذا ما يفصح بما فيه الكفاية عن مكامن العدالة ومواطن الإساءة.

الحياة هي المستطابة، وليس العمل. الترويح عن النفس وليس العناء. الحرية وليس الاسترقاق. لهذا السبب نحن بحاجة إلى العمل: أملا أن تكون الحياة ممكنة، ولغاية أن تكون أكثر إنسانية (ماركس: لا يبدأ تميّز الإنسان عن الحيوانات منذ لحظة شروعهم في إنتاج الوسائل الخاصة بوجودهم)، وحتى يفسح المجال للمتعة والحرية أن تمضيا قدما وتنتعش، وكذلك الثقافة والإبداع، والحياة الوجدانية والترويح عن النفس... لا مجال لتقديس العمل، ولا لتبرير الكسل. العمل ليس إلا وسيلة، وليس غاية. لكنه يعتبر الوسيلة الأكثر أهمية بالنسبة للمجتمع، ومن أكثر الوسائل تشكيلا للفرد وتكوينا له.

سبق وأن قال بودلير[67](Baudelaire): «لا مناص لنا من العمل، إن لم يكن بدافع الذوق، على الأقل بدافع اليأس: جميع الأشياء توضع موضع الاعتبار، هو أقل مدعاة للضجر من اللهو». أذهلتني هذه الجملة القاتمة حينما أنهيت مساري الدراسي، وربما كانت بمثابة منجاة لي. هذا لأني كنت بحاجة إلى أن أجود – مثل بودلير، ومثل معظم المثقفين والفنانين، ولو أن الحياة في حد ذاتها الفاقة والعبث من طبعها. يستلزم منا سنوات طوالا، وخوض غمار العمل خوضا كثيرا، لكي نقدّر بشكل أو بآخر في نهاية المطاف، قول مونتين حقّ قدره، وأن الحق كان بجانبه وليس بجانب بودلير؛ فالحياة في نهاية المطاف ليست تحفة فنية، ولا عملا بالمعنى الحرفي للكلمة، فما لها من هدف تطمح لها قائم في معزل عنها، وبما أنه لا ثمن لها، وليست «في حد ذاتها هدفا يطلب» على حد قول مونتين. فلولا ثقل كل فعل من أفعالنا التي لا محيد عنها، ولولا التعب والمسؤولية، ما كان ليعدو أن يكون مجرد لعبة.

فالعمل هو المنقذ من الضياع، وما هو بعلاج سوى للأشخاص المجانين. وهذا ما ينبغي أن يكون عليه بالنسبة للآخرين: إكراه وضرورة في جميع الأحوال تقريبا، وانضباط في كثير من الأحيان، وقد يتحول إلى شغف في بعض الأحيان، بالنسبة إلى أولئك الذين يعشقون مهنتهم. وهؤلاء أتوا نصيبًا وافرًا من الحظ الذي يتيح لهم أن يجعلوا من العمل سعادة. ولا يغيب عن أذهانهم مع ذلك، أن الحب هو المُنقذ لهم وليس العمل.

---

(67) - شارل بودلير (Charles Baudelaire)، شاعر وناقد فني فرنسي (1821-1867)، يعتبر من أبرز وجوه الحداثة الشعرية والفنية في القرن 19م، ويعتبر ديوانه "أزهار الشر" أشهر أعماله الشعرية.



(VIII)

معًا



معًا

هلمّوا معا! أضحى في السنوات الأخيرة واحدا من الشعارات الأكثر شعبية في تجمهراتنا. شعار متضارب، بما أننا نتظاهر فقط ضد شخص ما. لكن هذه الحال له ما يبرّره، بما أننا نتظاهر على نحو جماعي، وبشرط أن نكون متحدين على الأقل بشكل مؤقت وسلبي (وقت التظاهر، وفي وجه من نحتج ونشجب). هذا ما يفصح عن جوهر الحياة الاجتماعية بعامة، والسياسية على نحو أخص: والخاصية الجماعية والنزاعية من طبعهما. أو «المجتمع مؤتلفا ومختلفا» كما قال بذلك كانط. هل لأن الناس جبلوا على الشر؟ كلا. ولكن لأنهم أنانيون، مع أنهم غير قادرين على العيش بمفردهم.

نحن كائنات راغبة، ورغباتنا تجعلنا نتصادم. هل لأننا مختلفون؟ أحيانا. لكننا في غالب الأحيان متماثلون ومتقاربون. انظر هوبز، سبينوزا، باسكال... إذا حدث وأن أعرب رجلان عن نفس الرغبة بصدد نفس الشيء- نفس المجال، نفس السلطة، نفس المرأة...، كيف لا يمكن أن لا يصبحا غريمين أو عدوين؟ وإذا كانت «الرغبة هي جوهر الإنسان» كما عبرّ سبينوزا[68]، فإن النزاع يمثل جوهر

(68) - كتاب الأخلاق

المجتمع. وفي هذا مبعث العنف والداعي إليه، أو (حرب الكل ضد الكل) وفق تعبير هوبز[69]. ومن هنا أيضا، فإن الدولة والسياسة والقانون التي يكون رهانها معقودا على التغلّب على هذا العنف، فإنه لا يتأتى لها أن تفعل ذلك إلا بشرط استخدامه أحيانًا (الدولة المحتكرة، أو بتعبير ماكس فيبر Max Weber[70] هي التي تمتلك «شرعية احتكار العنف»)[71]. والحرية في الديمقراطيات لها هذا الثمن. والسلام في كل المجتمعات له هذا الثمن. ولسنا على صواب إذا قدّرنا أن هذه المجتمعات ينتفي فيها الصراع، أو السيادة على الكل حولها إجماع أو تصبّ في مصلحة الجميع. لو كان الأمر كذلك، لما كنا بحاجة إلى السياسة: فالإدارة والتقنية فيهما الكفاية الكافية. نحن بعيدون عن الأمر كل البعد، وفي ذلك سعادة لنا. ما ذا سيتبقى من حريتنا إذا قرّر التيكنوقراط بدلا عنّا؟ والمصلحة العامة ليست سوى فكرة مجردة وحل متوافق بشأنه؛ لن تصبح نافذة إلا حينما نقرر شأنها، وهو ما لا يتأتى إلا في مناسبات عدة وعلى نحو متناقض. وهذا ما تهدف إليه نظمنا الانتخابية، والبرلمانية، والاستفتائية. الديمقراطية لا تعني البتة انتفاء الصراع، بل هي المسلك الأنسب

---

(69) - كتاب اللفيان

(70) - هو عالم اجتماع ومفكر ألماني (1864-1920)، يعتبر إلى جانب مواطنه غيورغ زمّل (Georg Simmel) من أبرز دعائم المدرسة السوسيولوجية الألمانية المعاصرة. انصبت جل أعماله على تفكيك الصلة بين الدين والاقتصاد كما هو الحال في اشهر أعماله "الأخلاق البروتستانية والروح الرأسمالية"، ودراسة ترابط الاقتصاد والمجتمع في كتابه المهم "الاقتصاد والمجتمع"، وكان لهم اسهام أيضا في علم الاجتماع السياسي في كتابه المعنون "السياسة بوصفها حرفة".

(71) - السياسية بوصفها حرفة

لاحتضانه، والحل الناجع لاحتواء تناقضاته –من غير الاضطرار إلى استبعاده– من غير توسل سبيل العنف. فالانتخابات أفضل من الحرب الأهلية. والبرلمان أفضل من الطغيان. يحبذ أيضا أن يكون هناك العديد من الأحزاب ذات مشارب مختلفة، والتي يعارض بعضها بعضا معارضة بناءة لا معارضة على سفاسف الأمور. ما هي الجدوى من الاقتراع العام بطريق أو بآخر؟

السياسة، على نقيض ما وصفها كلاوزوفيتز (Clausewitz)[72]، هي استمرار للحرب بوسائل أخرى[73]. يمكن القول بأنها تعتبر أحد أهم أوجه التقدم التي تحقّقت في تاريخ البشرية (إنها وسيلة متميزة تميزا لا متناهيا، وبشكل يكاد يكون دائما، بالمقارنة مع الحرب)، وهي الشكل الوحيد الفعال الذي يخدم السلام. هذا هو

---

(72) - يتعلق الأمر بالمفكر والمحارب (برتبة جنرال) الألماني كارل فون كلاوزوفيتز (Carl von Clausewitz)، صاحب كتاب "في الحرب" (Vom Kriege)، وعبارة تصورات فكرية مستلهمة من تجارب ميدانية، انصبت على مختلف الجوانب المتصلة بالحرب (استراتيجيا، التخطيط، الدفاع، الهجوم، تجميع القوى في الزمان والمكان....). في الفصل السادس (ب) من الباب الثامن المعنون بـ" خطة الحرب" (Kriegsplan)، عنونه كلاوزوفيتز بهكذا عنوان "الحرب أداة للسياسة" (Der Krieg ist ein Instrument der Politik).

-Karl von Clausewitz, Vom Kriege, Area Verlag, Berlin 2003, S 510.

(73)- بهذا القول يكون أندري كونت سبونفيل على وفاق مع ما سبق وأن التفت إليه مواطنه الفيلسوف ميشيل فوكو في كتابه "يجب الدفاع عن المجتمع" حينما أشار إلى أن السياسة استمرار للحرب بوسائل أخرى، وهو على نقيض مع ما أفصح به كلاوزوفيتز حينما أشار إلى أن:"الحرب ليست سوى استمرار للسياسية بوسائل أخرى" (Der Krieg ist nichts als eine Fortsetzung des politischen Verkehrs mit Einmischung anderer Mittel).

- Karl von Clausewitz, Vom Kriege, Ibid, S 511/ Michel Foucault, Il Faut Défendre la Société, cours au collège de France. 1976, Ed Seuil/Gallimard, Paris 1997, P 16.

السبب الذي يجعل من مناهضة السياسية (l’apolitisme) خطأ فادحًا. وهذا هو السبب الذي يجعل من خيار الفردانية خيارًا خاطئًا. نحن لا نعارك وحدنا، بما أن عراكنا موجه ضد أحد ما، وبما أنه لا فرصة لنا بكسب رهان المعركة، ضمن نطاق المجتمع، إلا بمعية الآخرين... ولكن في حقيقة الأمر نحن لا نعيش لوحدنا. الحياة الإنسانية كلها لا تستغني عن الآخرين، فوجودهم بفضلهم يتحقق، وبهم يستقيم التعلم وتتم الرفقة، وتقاطع بعضهم مع بعض، وقد يمثل أحدهم للآخر مصدر الوهن أو مبعث القوة، وضد الآخرين يستند أو يعارض، يتعرّف إلى نفسه ويستقصي عنها. فالإنسان، كما قال أرسطو، هو حيوان سياسي، وهو الذي لا يمكنه، كما يضيف ماركس[74]، أن يخلو إلى نفسه إلا ضمن المجتمع. فهل ثمة، في الواقع، ما هو أكثر اجتماعية، من تلك الوحدة التي نحياها اليوم؟

انظروا إلى هؤلاء الناس الذين يخطون في الشارع. منهم من تراه بمفرده، والبعض الآخر كزوجين، أو كعصبة، والبعض الآخر تراهم منشغلين في الحديث عبر هواتفهم المحمولة...لا عجب إن

---

(74) - كارل ماركس (Karl Marx) فيلسوف وعالم اجتماع واقتصادي ألماني (1818-1883)، عرف عنه في مجال الفلسفة نقده لأنساق التفكيرالمثالية المفصولة عن الواقع، وهنا دعوته إلى قلب التصور الجدلي الهيغلي، وإعمال الجدل التاريخي المادي. وكان للأفكار التي طرحها في كتب الاقتصاد السياسي والرأسمال (نمط الإنتاج، الصراع الطبقي، المجتمع الشيوعي)، في تعاون مع رفيق دربه فريدريك أنجلز، تأثير كبير في مجرى التاريخ المعاصر (الأنظمة الاشتراكية، السياسات الاجتماعية)، وكذلك على الانشغالات الفلسفية المعاصرة (مدرسة فرانكفورت، لوي ألتوسير، روزا لوكسبورغ، إتيان باليبار، أنطونيو نيغري...).

كانت حياتهم كلها منسوجة من حيوات الآخرين. سواء أكان لديهم موعد، أم هم ذاهبون نحو التسوق، أم هم يقصدون موضع العمل... فإن كل هذا ما كان ليتم من دون حياة الناس الآخرين، التي تجوّز الأمر أو تبرّره. هل يتجوّلون بمفردهم؟ تكاد تكون أفكارهم مسكونة بهواجس أقربائهم، زملائهم، أصدقائهم أو أعدائهم. الأنانية هي نقيض الانغماس في الذات والانكفاء عليها. حب الذات وتقديرها هو نقيض التوحد مع أنفسنا. حاجتنا إلى الآخرين تفضل حبنا لأنفسنا مهما كان هذا الحب. وحبنا لأنفسنا يفضل، وبشكل أقوى، من ألا نحب أنفسنا. هل كنا على رغبة في أن نكون محبوبين؟ هل يمكن أن نكون كذلك؟

ألم تروا هذا الحشد من الناس غداة جمع أو احتفال. يا له من حماس، يا لها من روح تشاركية، يا لهذا الوقع الشديد للمشاعر والعواطف! يا لها من حيوية، تتقد في كل واحد منا، تزداد شدتها بفعل تظافر الروح الحيوية لدى الجميع! مع أنه الخطر عينه الذي يمكن أن ينجم عبر العنف، التصرف الأحمق والتجاهل. جرعة العواطف تتضاعف، بينما الذكاء يضعف. هل ثمة ما هو أكثر بلادة من مظهر الحشد؟ لكنه يشكل من خلال الاتحاد، من خلال الانصهار، من خلال البهجة أو الغضب المتقاسم، مصدر قوة. فالجماعة هي أعز من أن تحصر في جملة من الأفراد. فهي كيان مضاف، لها استجابتها الخاصة، تمتلك منطقها الخاص، وتحتكم إلى منطق ارتقاء خاص بها...يفضي بها نحو الضراء أحيانا (الإبادة، الرعب، المجازر)، والسراء في أحايين أخرى (الحفلة، العمل

الجماعي، العواطف المشتركة...). وقد نشهد، وهذا هو الحال السائد، تزامن الوضعين معا. ولّوا أنظاركم جهة الثورة الفرنسية أو التحرير. انظروا في جميع النِّسب التي تمتُّ بصلة بأحداث ماي 1968 أو 10 ماي 1981، كيف حظيت بالعناية الكافية. كيف أن السذاجة التي تزيد عن حدّ اللزوم تعم كل مكان. مظاهر من الهراء والجبن لا تحصى. بعض مظاهر الرعب هنا وهناك. فالتاريخ في نهاية المطاف يمضي قدما، ولا يمكن أن نحسن الفعل دوما. قال هيغل بأنه «لم يحدث شيء على قدر عظيم الأهمية من دون شغف». وهذا ما ينسحب أيضا، على صعيد المجتمع، على المشاعر الاجتماعية. أن يكون جان مولان (Jean Moulin)[75] أو الجنرال ديغول (De Gaulle)[76] على مقام أرفع من ذلك الحشد الذي شهد جنازة الأول وانتصار الثاني، هذا أمر لا غبار عليه. غير أنه لولا قوة هذا الحشد لذهب كفاحهم أدراج الرياح. من الأبطال من يظهرون في مظهر منفرد، أو هم بالأحرى الكل في صورة الواحد. لكن لا سبيل لهم نحو الكسب إلا على ظهر أولئك السواد الأعظم، أولئك الذين

---

(75) - يعتبر جان مولان (1899-1943)، أحد رموز المقاومة الفرنسية ضد الاحتلال النازي، أنشأ المجلس الوطني للمقاومة، توفي جراء آثار التعذيب في المعسكرات النازية في ليون وباريس بعد القبض عليه في 21 يونيو 1943.

(76) - هو شارل دي غول المعروف بالجنرال دي غول (1890-1970)، جندي ومقاوم ورجل دولة. يعتبر رمز المقاومة الفرنسية ضد الاحتلال النازي، ترأس "فرنسا الحرة"، ومشرفا على اللجنة الفرنسية للتحرير الوطني إبان الحرب العالمية الثانية، عيّن على رأس الحكومة المؤقتة في فرنسا بعد أن وضعت الحرب أوزارها (1945-1946)، وتوج مساره السياسي كأول رئيس للنسخة الخامسة من الجمهورية الفرنسية (1959-1969).

ليسوا أبطالا.

لا نعيش بمفردنا، ولا نتصرف لوحدنا. ومع ذلك لا أحد يستطيع أن يعيش أو يتصرف نيابة عنا. وهنا مكمن تميّز الوحدة، التي هي من نصيب الجميع، عن العزلة التي تعكس سوء الحظ أو ترمز للفشل. أن تكون بمفردك في قلب الحشد أو الأسرة، هذا وضع يعرفه الجميع. لكن ليس الشيء عينه أن تكون بمفردك رفقة الآخرين، الذين يشاطرون حياتك أو معاركك، وما معنى أن تكون وحيدا أعزلا، من دون وجود أي شخص تتقاسم معه أي شيء كان. الوحدة ليست سوى بُعد من أبعاد الشرط الإنساني. بينما العزلة هي نتاج التاريخ أو حاصل حالة مرضية. الوحدة قاعدة، والعزلة استثناء. والقاعدة نفسها لا قيمة لها، شأن أي قاعدة، إلا في ثنايا المجتمع. نحن، كما يقول ريلكه، وحيدون. لسنا، في نظر ألان، سوى المجتمع عينه. هذه هي لحمة حياتنا وسداها التي لن ننفصل عنها إلا بعد أن يفارق الروح الجسد. هذا الموت نفسه، حتى عندما نبرح هذا الوجود، لن يكف عن تعقب وجود الآخرين.

هناك زمرة من الناس تثير الفزع في النفوس، وأخرى لا يسعنا إلا أن نكيل لها بعضا من الازدراء، وأخرى قد تمارس عليك سحرها أو قد تبتلعك... وهذا الأمر مرهون بالمجموعات نفسها، كما يتوقف على طبيعة وجهات النظر. المظاهرة التي ترى من الشارع أو الرصيف، ليست هي نفسها. ليس الجمهور الذي يشاهد مباراة كرة القدم جمهورا، حسب من يشجع ولا يشجع. وليست الحفلة حفلة،

وفق من يستمتع بها ومن لا يستمتع...الفعل؟ والشغف؟ كلاهما، في غالب الأحيان، في وضع متين من أن يفترقا. أستحضر نماذج عدة من المظاهرات، السياسية والنقابية، عايشتها في فترة شبابي، وخاصة تلك التي يطبعها الشغب وتغمرها البهجة. لم أصادف، منذ ذلك الحين، الكثير من الأشياء التي قد تثير السعادة في نفوسنا. مجرد وهم؟ لا ريب في ذلك، على الأقل في جزء منه. لكن أي سعادة ليست كذلك؟ أو ليس الفعل في حد ذاته بهجة: فهو أفضل من العاطفة السلبية أو الخسيسة. أو ليس الاتحاد في حد ذاته متعة: فهو أفضل من انطواء كل واحد على همومه أو إشباع بطنه.

تتوج هذه البهجة باحتفال، حينما يكون النجاح حليفنا، والثورات تكون في بعض الأحيان واحدة منها، على الأقل في طور البداية، قبل أن يتقمص هذا الحيوان الكبير، كما قال أفلاطون (Platon)، صورة الوحش[77]. في أعقاب الحفلة، وغالبا ما تكون أياما عصيبة... ديكتاتوريات ما بعد الثورة، وغالبًا ما تكون فظيعة. لكنه خطأ اليوم الموالي أكثر مما هو خطأ ينسب للاحتفال. خطأ نابع من وطأة النزعة الأنانية، وليس بدافع الشعور الجماعي بالحماس. خطأ يتحمل وزره البيروقراطيون أكثر مما يتحمله المناضلون. لهذا السبب يعتبر الاحتفال غير كاف. لهذا السبب لا يغني الحشد عن الأمر شيئا. نحن بحاجة أيضا إلى شجاعة يبديها كل منا على نحو يومي، إلى توخي اليقظة من طرف كل واحد منا، ووضوح كل

---

(77) - Leviathan

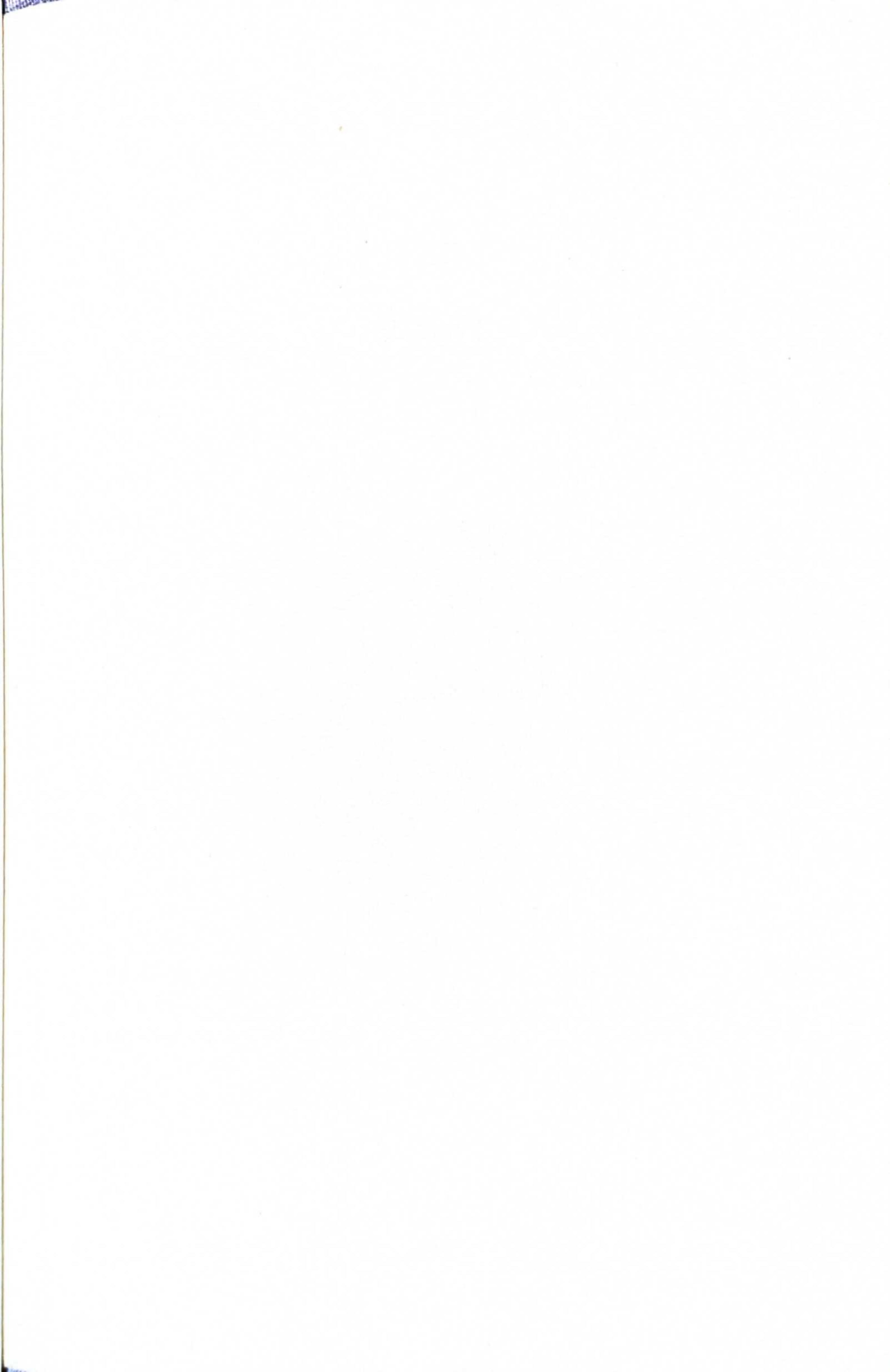
نفس، والحاجة إلى روح الدعابة تسكن كل واحد منا... في وجه النوبات الغضبية والإجهاد الذي يصيب الحيوان الكبير، ولا يوجد سوى علاج حصري، يتمثل في حرية العقل. حائلين بينه وبين الخلط مع مختلف مظاهر السلوك السقيم، ومع العدمية، ومع الاستهزاء الذي شاع نطاقه، لما في ذلك من مبعث الخراب الذي نعاين ضرره اليوم. ليس من شأن «حرمان المرء نفسه من سعادة الاتحاد المقدس»، كما أسلف القول **ألان** (Alain)، أن يعني أن ننبذ بالمرة كل ملذات الاحتفال وراء ظهرانا، ولا أن نتخلى عن مقتضيات العدل، ولا عن ضرورة الفعل. الاستغناء عن الأمسية الكبرى، لا يعني نبذ التقدم، ولا التخلي عن التضامن. القطع مع اليوتوبيا، لا يعني القطع مع السياسة. دعونا نتوخى الحذر من الثوار الذين تأخذ بهم الحماسة على نحو زائد، ربما ينبغي أن نبدي المزيد من الحذر من المحافظين الذين عادوا من كل حدب وصوب، وهم يتوقون إلى ثنينا عن المضيّ قدما.



(IX)

اللذة والألم





اللذة والألم[78]

وقف الأبيقوريون[79] والرواقيون[80] موقف المعترض على مبدأ سيادة الخير. تكمن سيادة الخير، وفق الموقف الأول، في سيادة اللذة: ما يثبت هذا أن كل الأحياء، حيوانا كانوا أم بشرا، يسعون وراء اللذة، وينغمسون فيها منذ لحظة قدومهم إلى الحياة، بقدر ما تجدهم كذلك أحرص الناس على الفرار، بقدر ما يستطيعون إلى ذلك سبيلا، من جحيم المعاناة، وهذا شأن «طبيعي ولا يحتاج إلى كلام» في نظر أبيقور. ألا ترون هذا المولود الحديث العهد بالولادة الذي

---

(78) - رغم أن مفردة (la souffrance) من الأنسب أن تكون مفردة "المعاناة" هي المقابل الأنسب في اللغة العربية، بينما يعتبر المقابل الحرفي ل"الألم" في اللغة الفرنسية هو (Le Mal, La Doleur)، لكن أثرنا أن نحتفظ بالزوج الفلسفي "اللذة والألم" المعهود في الفلسفة الأخلاقية، ولاسيما ضمن تراث الأبيقورية والرواقية، وهما التجربتين اللتين تعدّا موضع الاستعادة والاستفادة من قبل **سبونفيل** في هذا الفصل بالذات.

(79) - نسبة إلى الفيلسوف أبيقور (340- 270 ق.م)، وكان لها امتداد في بعد مع ديوجين ولوكريس وغيرهما. ويقرن المذهب الأبيقوري بين اللذة والفضيلة؛ فاللذة تجسد الخير الأسمى، بينما الألم يجسد الشر الأقصى، ومراده باللذة هو التحرر من الألم والملذات الحسية، ليوثر علها اللذة العقلية والروحية.

(80)- مذهب فلسفي هلنستّي شهد مولده مع الفيلسوف زينون (333-264 ق.م) في بداية القرن الثالث قبل الميلاد، وكان لتعاليم هذه المدرسة مع عدد من الفلاسفة من أبرزهم سنيكا وماركوس إوريليوس وإبيكتيتوس. يقوم مذهبهم الأخلاقي على ضرورة توافق الإنسان مع الطبيعة، وحث الإنسان على بلوغ الكمال الأخلاقي والفكري. والفضيلة عندهم هي الخير الأسمى، ومصدر السعادة.

يرضع من ثدي أمه، كيف سيباشر بالصراخ ما إن نحول بينه وبين الرضاعة... فمبدأ اللذة هو أوَّلًا وقبل كل شيء ليس مبدأ وإنما أمر واقع. الألم ليس تعبيرا عن حُكم، بل هو تعبير عن معاناة. ولهذا السبب تعتبر اللذة في حد ذاتها خيرا، ولا ريب أنها ليست الوحيدة كذلك (لا يغيب عن بال أبيقور أن ثمة من المعاناة ما تحظى بقبول حسن، على الأقل إذا احتسبنا ثمارها، كذلك الملذات التي يندى لها الجبين أو تلك التي تعتبر مبعث خطر)، لكن يظل الأول يشترط كل ما عداه. وهو كذلك يمثل «مبدأ الحياة المباركة وغايتها»: وفيه، كما خلص أبيقور، نعثر «على مبدأ كل خيار وكل رفض». من منّا عندما يهمّ بزيارة عيادة طبيب الأسنان لا يفترض انعدام الألم. لكن لماذا نقدم على ذلك، إن لم يكن المراد هو وقف المعاناة أو تجنبها؟ وقلما كان الذهاب إلى العمل باعثا على المتعة. هل كنّا لنقدم على الأمر، لولا المتعة التي نترقبها منه بشكل مباشر أو غير مباشر؟

احرص على الاستمتاع قدر المستطاع، واحرص على تجنب المعاناة قدر الممكن. وكل أفعالنا ليست سوى تأكيد لهذا أو ذاك. المتعة هي الخير الأول والأخير: حتى قيمة الفضائل نفسها تقترن بالمتع التي تكون في متناول كل واحد منا. وهذا ما ينعت بمذهب اللذة[81] الأبيقوري، وهو المذهب الذي سيحرص **فرويد** على تطويعه، متوسلا في ذلك سبيلا خاصا لا يجانب في جانب من جوانبه مسلك

---

(81) - أو الهيدونية (l'hédonisme) إذا عرب المفهوم حرفيا. وهي كلمة إغريقية مركبة من جذرين: "الإيدوني" (ἡδονή) التي تفيد اللذة والمتعة و"إزموس" (ισμός) التي تفيد المذهب.

الحقيقة. لكن ما كان للرواقيين، وهم يتوسلون بالملاحظة عمادا لهم، إلا أن يقفوا موقف المعترض غاية الاعتراض على هذا المذهب. فقد أشاروا أن ما من كائن حي إلا ويكون عرضة للمعاناة، هذا إن هو أراد أن يضمن لنفسه البقاء. وعليه فإن حرص كل واحد منا على توخي المثابرة في الوجود الذي له، لهو أمر يعلو على كل لذة. وليس هذا الوجود اللائق بالإنسان سوى وجود العقل نفسه، وعليه تفوق قيمة الحياة المتعقّلة (الفضيلة)، وتفضُل كل متعة. لم نعد أطفالا من طينة أولئك الذين لم يفطموا بعد عن الرضاعة، نحن بلغنا مبلغ الرشد، وما علينا إلا أن نكون على ما نحن عليه، وأن نستنفر قوانا لهذا، لهو الواجب الذي يستحق ويتجاوز فضله كل لذّة. من منا لا يبدي إعجابا بالرياضي أكثر من إعجابه بمن تكون المتعة هي شغله الشاغل، ومن منا ليس منبهرا بالبطل أكثر من انبهاره بمن يلهث وراء اللذة؟ من منا لا يضع الحكمة في مقام أرفع من الحصافة، ومن منا لا يجعل العدالة تسمو فوق المتعة؟ قد يحصل في بعض الأحيان أن يستطيب الجميع الكذبة التي تفي بالغرض، وقد ينسحب الأمر حتى على أولئك الذين تنطلي عليهم الخدعة. فلماذا هي أقل شجبا من الناحية الأخلاقية؟ ستكون حقيقة غير سارة على سبيل المثال بالنسبة للجميع في المحكمة، فهل لها في هذا المقام أن تكون أقل صدقا وعلى جدارة أقل؟ صرامة إبيكتيتوس[82] مقابل مرونة

---

(82) - إبيكتيتوس (Epictetus) فيلسوف روماني أحد ممثلي المدرسة الرواقية اللاحقة (55-125 م)، جل ما وصلنا من تعاليم أخلاقية في كتابه "المحادثات" و"المختصر" تم تجميعه من قبل تلميذه أريانوس.

أبيقور. مذهب الأخلاق مقابل مذهب اللذة. الإرادة ضد الاستباحة. بهجة الجهد مقابل متعة الراحة.

وقع اختياري أول ما وقع على أبيقور، قد يكون للبعد الذي بيني وبينه سببا وجيها في هذا الاختيار. ثم واصلت مسعى وضع الرواقية موضع المراجعة والتقييم من جديد، وقد استغرق مني هذا الأمر زهاء عقد من الزمن. كان اختيار العودة إلى الوراء هو نهج **مونتين**، هو الذي أراد في البداية أن يكون رواقيا، ولو خالف ذلك دواخله، ليكتشف نفسه مع تقدم السن، أنه أميل أكثر فأكثر **لأبيقور**... لكل سبيله، والذي لا يفضي به في النهاية سوى إلى نفسه. والحق يقال إنَّ كلتا المدرستين، وهما تمثلان معين الحكمة الغربية، تكمل كل منهما الأخرى أكثر مما تعارضها، ولا تضاد أحدهما الأخرى من حيث هما تعبير عن نظريات، إلا من أجل أن يتمّم بعضها البعض في الإنسان، إذا قدرناهما كخبرات. فهما قطبا الحياة، وبما هما على هذا الحال ليس علينا أن ننتصر لأحدهما الآخر، بقدر ما علينا أن نتأرجح بينهما (لهذا تقوم الحكمة مقام الوسط) أو بالأحرى أن نحرص على إيجاد التوازن بينهما. فالمتعة أجدر من المعاناة، وهذا ما يسلّم به الرواقيون أنفسهم. وأن تكون الفضيلة أكثر متعة من الرذيلة، هذا أمر لم يتغافل عنه أتباع الأبيقورية. إنها النقطة التي يلتئمون حولها، مهما تكن طبيعة الخلافات الحاصلة بينهم، أو هي النقطة التي يتقاطعون فيها. عظمة اللذة، وعظمة الشجاعة، كلاهما ضروري. من ذا الذي سيرضى لنفسه أن يجد في مسلك الجبن متعة له؟ وأي شجاعة هذه، في المقابل، التي لا تستتبع على الأقل متعة التغلبّ على النفس؟

مذهب اللذة الأبيقوري هو نقيض العجز. والنزعة الأخلاقية الرواقية هي على نقيض تعذيب النفس[83]. تتبوأ السعادة مقاما أجدر وأفضل من اللذة، أو قل هي اللذة القصوى التي لن تقوم لها قائمة من غير إرادة متعقّلة (من دون حكمة). وهذه الفضيلة تنطوي في ذاتها على لذتها، وهي السعادة الوحيدة في حقيقة الأمر. أنظروا إلى شجاعة أبيقور في مواجهة المرض، وسعادة إبيكتيتوس في مواجهة الكل.

أستوصي نفسي بالحذر من طينة المذاهب التي تفرط في الظهور بمظهر الوجه الواحد. السبيل الوسط، كما قال **مونتين**، وهو قول **بوذا** قبله، هو الأكثر جدارة وأفضل من الحدود القصوى المصطنعة بينهما. لا مجون ولا زهد. لا ليونة ولا صلابة. «الشدة لا تعني، في نظر **إتي هيليسيوم** (Etty Hillesum)[84]، التشدّد». المتعة غير كافية. الشجاعة لا تكفي. وماذا عن الحب؟ بدوره لا يكفي، لأنه لا يخلو من جهته من المتعة، ولا يستحق شيئا يذكر من دون الشجاعة.

ربما تكون المعاناة هي أول ما عهدناه في هذه الحياة أكثر من غيرها. لم تكن الولادة ضربا من المتعة. غالبا ما نزن حيوية المواليد الجدد في عياداتنا، أولا وقبل أي شيء، من خلال شدة صراخهم. هي المهنة التي تدخل على الخط. إنها الحياة التي تثبت أقدامها. ومع ذلك لا شيء يمنع من أن يختبر الطفل هذه المعاناة منذ ولادته بشكل يربك

---

(83) - Masochisme

(84) - هي كاتبة هولندية (1914-1943)، من أصول يهودية، توفيت في معسكرات الأوسشفيتز في بولونيا في 30 نوفمبر 1943.

حياته الطبيعية، وهذا أمر وارد حينما يأتي إلى الوجود والنقص ملازم له، وقد يكون لحالة طرأت عليه أثناء وجوده في الرحم أو لأمر آخر يستعصي عن الفهم حدث قبل الولادة...فهل اللذة تكمن في وضع حد لنهاية المعاناة، أم أن مردّ المعاناة إلى انعدام اللذة وفقدانها؟ قد يصدق هذا الاحتمال أو ذاك، أو كلاهما في نفس الوقت، وهو ما لا يستبعد أن يكون هناك ملذات أولية ومعاناة في منتهى التمام. تنشأ لذة الأكل حينما يكون المرء جائعا، وتبدأ المعاناة مع الجوع، حينما لا يشبع المرء حاجته من الطعام. ثمة أيضا المتعة الجمالية التي لا تغني أي نقص، وثمة المعاناة المكشوفة– الناتجة عن ضربة، إصابة، مرض-التي ليست تحصيل حاصل لأي خسارة. الشعور بلذة الطعام حينما نكون جائعين، ليس هو نفس الشعور بمتعة تناول الطعام في وضع مريح، حينما نرغب في ذلك. المعاناة من مرض معيش (ورم أو جرح على سبيل المثال)، ليست هي نفس المعاناة من مرض ليس موجودًا أو لم يعد كذلك (مثل الصحة). المعاناة هي شيء آخر غير الحنين إلى الماضي. اللذة شيء آخر غير الإحساس بالارتياح.

الوجه الإيجابي للذة. الوجه الإيجابي للمعاناة. لم يكن إصابة الحق من نصيب فرويد ولا شوبنهاور[85] (Schopenhauer)، بحيث لم تكن اللذة في نظرهما سوى بمثابة وضع حد لنهاية التوتر،

---

(85) - أرثور شوبنهاور (Arthur Schopenhauer) فيلسوف ألماني (1788-1960)، عرف بنزعته التشاؤمية والريبية. يعتبر كتابه العالم بوصفه تمثلا وإرادة من أبرز إسهاماته الفلسفية التي فصل فيها القول عن العلاقة بين العقل والإرادة، فأولى السيادة للإرادة على العقل.

والمعاناة، والشعور بالضيق. لو صدق هذا الأمر، فإن العدم سيكون أفضل (لهذا فإنه كلا الدافعين ليس سوى تعبير عن دافع واحد عند فرويد، وهو دافع الموت)، وهذا ما تأباه الحياة، فهذا وضع لا تخلو منه على الأقل لا اللذة ولا المعاناة نفسها. لا أحد يعرف ما إذا كانت الشهوة الجنسية، على سبيل المثال، تعين على إزالة التوتر. من دون أن يعني ذلك أن تختزل في هذا حصرا، ولا هي تمثّل مبعث كل متعة جنسية. ولو أن إشباع هذه الرغبة قد يتحقق على نحو أسرع مما نتصور، وفي غاية البساطة، وبمنتهى اليقين عبر العادة السرية، لكن من دون أن يحول هذا الأمر بيننا وبين ممارسة الحب... وإن كان من شأن الأكل أن يطفئ شهوة الجوع، لكن من دون أن يعني أنه سيستأصل شهيتنا استئصالا كليا، ولا أن يرسخ انطباعا خاطئا لدى من يتذوق الطعام...فالشهوة الجنسية ليست كل شيء، ولا هي تعتبر مسألة جوهرية. تحقيق الإشباع ليس هو كل شيء. وإن الإثارة الجنسية والحب يعتليان مقاما أرفع وأفضل. وأن فن الطبخ والذوق لأفضل وأرفع. وما أتعس المرء حينما يجد نفسه يعيش فقط من أجل ألا يعاني! وهذا ما لم يكن: فنحن نحيا لكي نعيش، وهذا هو الدافع الوجيه للرواقيين من أن أجل اقتناص لحظات الاستمتاع والشعور بالسعادة، وهذا هو الدافع الوجيه الذي دفع الأبيقوريين في نهاية المطاف نحو احتضان الحب. وهذا هو الحافز الوجيه الذي حفز سبينوزا نحو الحياة والحب. فهل العدميون على غير حق، أو أن الخطأ ليس من نصيب الحياة. ألم يكن المتشائمون على حق، أو أنهم يكونون كذلك إلا عند مشارف الحياة، بما أننا لا محالة زائلون، لكن

ليس بما يوافق طريقنا في الحياة، بما أننا نعيش، ولأننا نعشق الحياة. فالحياة تسمو وتُفضل على العدم، على الأقل أن المرء طالما يعثر على متعته فيها، وطالما أن المعاناة ليست بهذه الفظاعة المتصورة، أو ليس لها أن تسلب منا كل شيء. متعة العيش، شجاعة العيش. كلاهما يمضيان معا، لأن المعاناة طالما تمثل موضع تهديد لنا أو لا تنفك تصاحبنا، وحيث لا توجد متعة من غير شجاعة، ولا شجاعة بما أنه لا نمتلك ولو الحد الأدنى من الرضا. فمبدأ اللذة، كما أسلفت القول، ليس مبدأ، بل أمرا واقعا. يسعى كل واحد منا جاهدا لكي يستمتع قدر الإمكان، ويتجنب المعاناة قدر المستطاع. ولكن هذا الجهد الذي ينتمي إلى الحياة في حد ذاتها، هو بالفعل متعة.

هذا ما يطلق عليه سبينوزا الرغبة[86](النزعة التي تمكّن كل كائن من الاستمرار في الوجود والمثابرة فيه)، وهي التي قد تتمظهر في صورة لذة أو شهوة أو إرادة. أرى أنه ثمة إمكانا للمصالحة بين الحديقة والرواق[87]. هل السعادة هي التي تصنع الفضيلة؟ هل الفضيلة هي التي تصنع السعادة؟ لا هذا ولا ذاك، إذا لم يكن لدينا أي رغبة فيهما (وإن لم يكن لدينا أدنى رغبة بهما، فإنهما والعدم سيان). فكلاهما سيان، إذا نحن رغبنا فيهما معا، وأتيح لنا أن نفهم ترابطهما حقّ الفهم. لا اللذة ولا الفضيلة بمطلقين: بل هما يعبران عن أوضاع الجسم والروح، والتي لا قيمة لها إلا بما يتناسب مع

---

(86) - الكوناتوس (conatus).

(87) - هنا إشارة إلى إمكانية المصالحة بين الأبيقورية والرواقية، من حيث أن مهد الأولى هو الحديقة، والثانية هي الرواق.

الرغبة التي تتولد لدينا تجاهها. ومن ثمة فإن كليهما صالح، بما أن رغبتنا لا تستثني هذا ولا ذاك. كتب سبينوزا أن «الرغبة في أن نكون سعداء، هي أن نحيا حياة جيدة، ونتصرف بشكل جيد، وما إلى ذلك.، إنها تعبّر عن جوهر الإنسان نفسه، ولا يمكن تصور أي فضيلة»، بشكل منفصل عن هذه الرغبة. أن نضع اللذات موضع إدانة؟ لن نحصد سوى التعاسة والسخافة. أن نتنصّل من الفضيلة؟ لن نحصد سوى الخسة والهمجية. نجد رغبتنا، في كلتا الحالتين، تتعارض. الرغبة في الحياة، هي دائما لا تنفك عن الرغبة في الاستمتاع والابتهاج، ورغبة المرء في تطوير نفسه، وقوته، وحريته، وفضيلته- هي الرغبة نفسها في العيش على نحو أفضل. وللحياة نفسها هدفها الخاص، ومعيارها الخاص بها. والجهد المبذول في سبيل العيش هي الحياة نفسها.

وهذا ما يسمَّى أيضًا الصحة، طالما أن هذا الجهد المبذول ليس صعبًا. إنَّهُ الحد الأدنى من الخير، الذي لم يكن كافيا قطعا من أجل نيل السعادة، ولا الفرح نفسه، ومع ذلك فهو أثمن ما نمتلكه، ما دام أن غيرنا يسلمون به من غير تحفظ. وماذا عن الحكمة؟ تفترض سلامة العقل وصحته، وهو أمر لا يمكن ضمانه. فبإمكان جرثومة أو ورم أن يدفع بفطاحلة الحكماء إلى هاوية الجنون. وهذا هو السبب في أن الصحة أثمن من الحكمة، وإن كانت غير كافية؛ وهذا هو السبب الذي يجعل الطب أرفع قيمة من الفلسفة، لكن من غير أن يحل مكانها.

إن كانت «الحياة كلها معاناة» في نظر **ألان**، لكنها تعلمنا أسباب الألم (الفاقة والرفض، الأمل والخوف)، وتدلنا على سبل التحرر منه (الحكمة). لكن هذا لا يحول بيننا وبين المعاناة، لأننا أحياء، ولأننا بشر، وبما أننا لسنا بحكماء. فالمعاناة لا تحول بيننا وبين أن نعيش الحياة- لأن المعاناة من نصيب الأحياء وحدهم-، ولا تمنعنا من عشق الحياة، طالما أننا نصادف النصيب القليل من المتعة فيها. وحينما لن نصادف المزيد منها؟ ربما يكون أوان الموت قد حان، إذا أردنا، وإذا اقتدرنا. يتوقف الألم كله، ويسكن سكونا أبديا حيث يرتحل الناس جميعا. ومع أنها تزيل كل أثر للذات إلى غير رجعة، إلا أنها لا تثبت أي شيء ضدها. الأفئدة العاشقة، التي تستمتع ببعضها البعض، تعلم هذا حق العلم. الموت نفسه الذي سيجعل هذه اللذة الزائلة كأنها لم تكن يوما ما، لا يمكنه أن يحرمهم منها.

(X)

الديمومة





الديمومة

النضج لا وجود له، أو لا يوجد بالنسبة إلى الآخرين. هذا الرجل الذي بالكاد يكبرني، والذي أحييه بما يفرض علي واجب الأدب في المصعد، هل هو على بيِّنة من نفسه أن هذا الذي يحدّثه ليس سوى صبي صغير، يتملّكه بعض الخوف، ويخالجه بعض الحرج، وهو يتحدث إلى شخص راشد، كما لو أنهما شخص واحد، وقد أخذته الدهشة حقا، بما يشبه الشعور بالإطراء، مع أنه في العقد الخامس من عمره، بما يوحي أن الآخر يصدق ذلك؟ بل أنني، والحق يقال، لم أعهد جاري إلا مثل الصبي الصغير الذي ظل يتصرف على طبيعته، تجاهله الجميع، إلى حين أن وُرِي الثرى بشكل يبعث على الأسف، وهو على عتبات العقد السادس من عمره...لا وجود لأشخاص كبار. ليس ثمة سوى أطفال يتوهمون أنهم بلغوا من الكبر ما بلغوا، ولو أنهم أدركوا الكبر واقعا، ولكن من دون أن يكون في مستطاعهم تصديق ذلك، ودون أن يفلحوا في التنصل مطلقا من الطفل الذي كانوا عليه، وهم يظلون، رغم التغير الذي طرأ عليهم، مثل ذاك السر، مثل اللغز، أو قد يكون هو الذي يتملّكهم... أن تكون بالغا، يعني أن تتقمص دورا تركيبيا. حسبي أن هذا هو شعوري، مع أني أعلم تمام العلم أنني لست الوحيد، من غير أن أكون متأكدا تماما أن

هذا هو حال الجميع. والحق يقال، أن البعض قد يتفنّنون في هذا الدور، فيظهرون موهبة فريدة، ظاهرها الجدية والرضا عن الذات إلى الحد الذي تجعلهم ينخدعون بها. ربما قد يكون هذا مجرد مظهر زائف، قد يحدث أن يقع للآخرين أيضا...من يستطيع أن يعرف؟ الوجه مجرد قناع، الأكثر تضليلا كما يقول **باسكال**، لكن ليس هذا هو حاله دائما.

هذا النصيب من الطفولة الذي يصاحب كل واحد منا، ومن المغري أن نعاين كذلك وجهها الشعري، كما لو أنه مبثوث في نثر الزمان ومحفوظ فيه، ولا ريب أن هذا ليس يجانب عين الصواب. ولكن من دون أن نتغافل عن مكامن الوهن، من قبيل الأنانية، والخوف! الطفولة على نقيض الجنة. قد ينير سبيلنا، في هذه المسألة، **فرويد** أكثر مما سيفعل **بودلير**. لندعها ونشيح النظر عنها. ما يهمني الآن هو من بلغ مبلغ الرشد، وكل مرادي أن أفهمه، وأن أحتفي به، لأنه أهل لذلك، على الرغم من كثرة مظاهر الرداءة، والفظاظة، والكآبة. «أن يشيخ المرء قبل أن يصبح بالغًا» كما أراد **بريل (Brel)**[88]، سيكون كمن رهن نفسه في مرحلة الطفولة أو في مرحلة الشيخوخة. من الأفضل أن تكبر قبل أن تشيخ، عوض أن تشيخ دون أن تختبر طور الكِبَر! وبعدها أنجبنا أطفالا: فما كان لنا إلا أن نتولى تربيتهم تربية حسنة، وهو ما لم يكن في وسع أي طفل أن يمتثل له...وفي نهاية المطاف نجد أنفسنا وجها لوجه أمام التعب، وخيبة

---

(88)- جاك بريل (Jaques Brel)، كاتب وشاعر، وممثل ومخرج بلجيكي (1929-1978).

الأمل، والاجترار، وقبالة الوقت الذي يمضي ويتسارع إيقاعه، وثقل المسؤوليات، والقلاقل، والعمل...تقبع الطفولة وراءنا بغير رجعة (هي كذلك: فينا وخلفنا في الآن نفسه)، وهو الوصف الذي نطلقه على من بلغ سن الرشد. الدور التركيبي؟ لا ريب، أنه ما ينطبق علينا- وهو الوحيد الجدير بالطفل الذي كنا عليه أو بلغنا مبلغه.

هناك نص يعود لبيغي[89] (Péguy) يغمر دواخلي، وهو من أجمل ما كتب، وأكثره عمقا، ومن أكثر النصوص حسما. وهذا النص متضمن ضمن كتاب **حوار حول التاريخ الوثني وروحه**. ومدار هذا النص كان على الإنسان الذي بلغ من العمر أربعين سنة (وهو العمر الذي بلغه **بيغي** حينئذ)، ومعرفته، وسره، وهي الفترة التي تعج بأكثر أسرار شهرة وخفاء كونيا، وهذا، كما يوضح **بيغي**، هو ما نعهده حصرا عند من لا يدنو عمره عن عتبة سبعة وثلاثين أو ثلاثة وثلاثين عاما، ومن لا يصغر به الزمن إلى «الإنسان الذي هو في مقام أدنى». لما؟ هل لأننا لسنا سعداء. هل الحكمة في ذلك أن الإنسان الأربعيني على استعداد أن يبدي شكوكه ويجادل بشأن كل شيء، بينما من دونه ليس له ذلك. إنه حسب **بيغي** «المعتقد الوحيد، والعلم الوحيد الذي يهتم بشأنه، والذي يحس فيه ويعرف معنى الالتزام بالشرف». رب معترض قد يقول إنَّ كل هذا يتوقف على الأفراد، وعلى التعريف الذي نعرف به السعادة... أسلّم بهذا، وهذا ما أبديت

(89)- شارل بيغي (Charles Péguy)، كاتب وشاعر فرنسي (1873-1914).v

إشارات حوله غير ما مرة في موضع آخر، غير أني أحبذ أن يعرض بيغي عن هذا المقطع جانبا، من غير تردد، كما يقول، ومن غير تواطؤ، وبدون عطف. ليست السعادة التي نحلم بها سوى الحلم نفسه. هذا النعيم لا وجود له. قد نكون في وضع يحتمل أن يكون على قدر كبير أو قليل من السعادة، عندما نكون ذلك، بل إنه بالأحرى أن نقول إننا على نصيب قليل منها أكثر مما نكون على قدر وافر منها. لكن هذا ما قال به قوم آخرون غيرنا، متوسلين عبارات أخرى، في جميع اللغات. ما نصادفه بكل بساطة، وهو هذا الذي يفصح عنه بيغي:

«ألم تبصروا هذا التضارب. الرجل نفسه. هذا الرجل الذي لديه بالطبع ابن في العمر الرابع عشر [وهو سن ولد بيغي حينئذ]. ما كان يشغل باله حصرا، هو أن ينعم ابنه بالسعادة. لم يدّعِ أنه اهتدى لهذا الأمر لأول مرة. لم ينبس لنفسه ببنت شفة إطلاقا، وفي ذلك دلالة على طينة فكرية في غاية العمق. بصرف النظر إن كان هذا الرجل مثقفا أم لا، إن كان فيلسوفا أم لا، إن كان سئم الحياة أم لا (اليأس الناجم عن المعاناة، هو أسوأ مبعث للفسق). فكره هذا هو من طينة فكر العجماوات. إنهم الأفضل. إنهم الوحيدون. إنه على طريق التفكير الواحد سائر. فكره من جنس ما لا يفكر. كل مراده أن ينعم ابنه بالسعادة. يكاد يكون شاغله الفكري هو هذا، وهو أن تغمر السعادة ابنه»

صادفت هذا النص لما شارفت على العقد الرابع من عمري، وأنا

أب لثلاثة أولاد...ولم يبرح بالي منذ ذلك الحين. لم أكِلّ من إعادة قراءته في عدة مناسبات. فهو يزيل الغشاوة عن بصري، ويجعلني أتبيّن ما معنى أن يكون المرء راشدا. إنه الشخص الذي زهد في السعادة، ليجعلها في كل الأحوال من نصيب من كان يتطلع نحوها وهو في السن السادس عشر، والذي لم يعد يؤمن بها ويهتم بها، على الأقل لنفسه ولمن هو في عمره، غير أنه ما كان بمقدوره أن يقلع عنها إذا كان لديه أطفال، وأن يكف نفسه على أن يحلم بها لهم، ويتمنّى أن تكون من نصيبهم، بما يرافق هذا الحلم وهذا الآمل من جنون، ومن ترقب، ومن خيبات... وما أجمل هذا التضارب. هذا هو نصيبنا من الجنون. وهذا هو حظنا من العاطفة. وهذا هو قدْرنا من الطفولة، مع أنها تحضر هنا في صورة منظورة مأمولة، بقلب فارغ، في هيئة أخرى... ثم يبلُغ الأطفال مبلغ الكبر، ويخلّفون أطفالا. فكل شيء يسترسل، ولن يتوانى كل شيء عن الاسترسال في مجرى الحياة. السر مصون غاية الصون، حتى عندما يُفتضح أمره. ليس لأننا نتقن الكذب، وليس لأننا نوثر الصمت. وهو أنه لا يمكن للمرء أن يقبل لأطفاله، ما استغرق منه سنوات طوال ليحيط به فهما، وأعوام لكي يحظى بقبول معتبر في نفسه، وسنوات لكي يتأتى له التغلب عليه في غالب الأحيان، بشكل بالكاد يبعث على السعادة...ما الشخص الراشد؟ هو الذي تعلم أن يستديم نفسه ويتحمل، لكنه ليس من طينة من يبحث عن العزاء لنفسه، إذا كان لديه أطفال، لأن واجب تعلم هذا ملقى على عاتقهم أيضا.

ولا يحول هذا بينه وبين العيش، وليس من شأن هذا أن يصده عن

المحبة، لتكون حكرا على أبنائه. كما لا يحول هذا بينه وبين أن يكون سعيدا، ولو تطلّب أن ينال هذه السعادة وفق طريقة يرتضيها لنفسه في بعض الأحيان، وأن يكون على قدر قليل من السعادة أو كثير، أو يخال نفسه سعيدا، لنقل دعونا ألا نكون تعساء. وهذا لا يعيقه عن الوجود ويثبط عزيمته عن الإصرار، والاستمرار في الوجود والمثابرة فيه. وهذا لن يصدّه عن القتال والاستماتة فيه حتى لو اعتقد أن النصر لن يكون حليفه. لا يحول هذا بينه وبين أن يحيا حياته، والزحف نحو الشيخوخة... الإنسان وهو في عقد الأربعينات، وهو في عقد الخمسينات، وهو في عقد الستينات...ونحن جميعا على بيّنة من أمرنا كيف سيكون المآل. ليس المآل هو الذي يشغل بالنا، وإنما الطريق الذي ينبغي أن نسلكه، هو العمل الذي ينبغي علينا القيام به. إنه الحب الذي يقتضي أن نجود به. هي الحياة التي تمضي قدما، الحياة التي تأبى أن تموت، تأبى أن تخر صاغرة مستسلمة... هي «الرغبة الجادة في الاستمرار»، كما أفصح **إيلوار** (Éluard)[90]. إنها الرغبة التي تعتبر، على أي حال، المسألة الأكثر جوهرية، تلك التي يفترضها الآخرون، وهي بمثابة الطعم الحقيقي للحياة. نجد أنفسنا محكومين دوما بمفهوم الكوناتوس (الرغبة) الذي قال به **سبينوزا**، وهو إيثار كل كائن وميله نحو المثابرة في وجوده، وهو تعبير عن الجهد الذي يبذله كل إنسان في سبيل أن يستمتع ويبتهج بالحياة، ويعيش المرء أكبر قدر ممكن وأفضل ما يمكن. القدرة على

---

(90) - بول إيلوار(Paul Éluard)، شاعر فرنسي معاصر (1895-1952)، يعتبر أحد دعائم الحركة السريالية.

الفعل[91]، كما نقرأ في كتاب الأخلاق[92]، أو القدرة على الوجود[93]: قدرة الفعل، وقوة الوجود. ودون ذلك، ما كان لنا لنعيش، وما كان لنا لنتصرف في حل من ذلك. وما كنا لنمتلك القوة كذلك التي تسعفنا على الانتحار. وحينما لا نكون بحاجة إليها، سنُحسب بالفعل في عداد الأموات لا الأحياء.

ما الديمومة؟ لا تعني الوجود في الزمن فقط، وإنما الوجود ضمن استمرارية الزمن. هو أن تمتلك ماضيا، ما فتئ يأخذ في الازدياد، وأن تكون فرصة امتلاكك للمستقبل تقل شيئا فشيئا. أن يحمل المرء حاضره على محمل ذراعه نحو أبعد مدى ممكن، بدل أن يحمله هو مثلما يحمل طفلا. أن يحمل موته على محمل ذراعه نحو أبعد مدى ممكن. علينا أن نبلغ مبلغ النضج، إن اقتدرنا أن نبلغ. علينا أن نتقدم في العمر، ولا خيار لنا في الأمر. علينا أن نعيش ثانية، أن نكافح مجددا، أن نُقْدم على الفعل مرة أخرى، أن نحب مجددا. هو أن نتغلّب على التعب، على الرتابة، على الاشمئزاز، على الفزع، على الرعب. ما ينقصنا على أي حال هو أن نتحلى بالشجاعة! تفاهة كل شيء، ما عدا الأسوأ. الكلل من كل شيء، ما عدا الأفضل. وهذا لا يحول بيننا وبين السعادة، تلك السعادة التي هي في مستطاع كل واحد منا، تلك السعادة التي أصبحت في متناولنا كل واحد منا (الأمر قد يصدق

---

(91) - وردت بالاتينية: Agendi potentia

(92) - هذه الإشارة وردت ضمن القضية السادسة والسابعة من الباب الثالث المعنون ب: "أصل الانفعالات وطبيعتها". أنظر: باروخ سبينوزا، علم الأخلاق، ترجمة جلال الدين سعيد، المنظمة العربية للترجمة، بيروت 2009. صص 156-157.

(93) -ذ وردت باللاتينية: sive existendi

على البعض على نحو أكثر، خلال عشرين عاما خلت). كما لا يحول هذا بيننا وبين تذوق الحلاوة، والفرح، والفضول، والعاطفة، والمودة، واللذة. وليس من شأن هذا أن يصرفنا، في بعض الأحيان، عن اكتشاف بعض الأشياء أو الانفصال عنها، ولا يحول دون إعادة ترتيب الأمور، وتجنب التغيير (زواج جديد، وظيفة جديدة، وشغف جديد...). نشعر، مع ذلك، أن الأمر المهم قد حدث بالفعل، وأنه سيكون من دون جدوى أن ننتظره، والذي ليس له، في أفضل الأحوال، إلا أن يمضي قدما...إنه نقيض الأمل، كما أنه نقيض الحنين. تقبع الطفولة وراءنا، ومع ذلك هي ترافقنا. لا تنتصب قبالتنا، وإلا لن تكون إلا بمثابة أثر من الماضي أو مجرد حمل يُثقل كاهلنا. لن يجد الإنسان الراشد قبالته، ولكلّ من يتطلع إلى مستقبل شخصي، سوى رجل كهل أو العدم. لم يعد يبدي اهتماما معتبرا. ليس ثمة ما يدعو إلى العجلة. لم يعد هناك ما يكتسي أهمية كبيرة. ثمة الحاضر الذي ما فتئ يمضي. ثمة الواقع الذي لا ينفك يثابر. ثمة وجه القسوة الذي يكشرّ عنه العالم، كما له جماله وهشاشته أيضا. كما للمنزل طيبته ومتعته. ثمة الأصدقاء والأعداء، الأسباب التي يجب أن نرافع من أجلها، والأهوال التي يقتضي أن نجابهها. هناك قدر من الغباء الذي يهدد، والذكاء الذي يقاوم. روح الدعابة والغضب كذلك واردة. ثمة العمل كما توجد الراحة. ثمة حياة تستمر، وكفاح يستمر، وأطفال يكبرون، ليصبحوا بدورهم آباء أطفال.

(XI)

الموت





الموت

يعتبر الموت، بما لا يخفى على أحد، مشكلة الأحياء وحدهم. خلص أبيقور إلى أن الموت ليس من نصيب أحد ما على الإطلاق: فلا هو من نصيب الأحياء طالما أنهم أحياء يرزقون، ولا هو من نصيب الموتى طالما لم يعد لهم أثر في الوجود. التفكير في الموت كأنه والعدم سيان بالمعنى الدقيق، لاريب أنه أمر مطلوب، لكنه ما كان ليشفينا بما فيه الكافية من مبعث القلق الذي يلهمنا، لما لا يكفّ تهديد الموت عن استهدافنا، ولا هو يمثل عزاء لنا، حينما نرزأ في أحد أحبتنا. العدم شفاء بالنسبة إلى الأموات وحدهم، وليس سوى نقطة في بحر بالنسبة إلى من هم على قيد الحياة مثلنا.

الموت كأنه شيء لم يكن، هذا ما أومن به. يبقي هذا، على أية حال، مجرد اعتقاد: بالموت، مع أنه لا نمتلك تحديدا له وخبرة به، ولا معرفة به، ولا نحظى بأي معلومات موثوقة عنه. أولئك الذين يقلبون الموائد رأسا على عقب، لا ملامة عليهم. بحوزتنا ما يغني من الحق في المتعة والحلم، والمحاولة... لكن أجد نفسي دائما منذهلا من «الرسائل» المبتذلة التي يتوصلون بها أو ينثرونها! إذا لم يكن لدى الأموات شيء في غاية من الأهمية ليخبرونا به، فما جدوى أن نتولى

استجوابهم؟ إنه فقدان الثقة في الخرافة، وهو في الواقع أفضل ما يمكننا القيام به. أما عن الأديان، فليست سوى ترهات محترمة أو هي تحترم، ولست أعلم شيئا أكثر سذاجة من ذلك التمثل الذي لهم حول الجنة، حينما يتولون وصفها، وما عهدت دخانا يتطاير، وهو يتبرؤون منها. وماذا عن التجسيد؟ تأخذني الدهشة من البعض في الغرب الذين يجعلونه حُلما لهم، أكثر مما يرون فيه مجرد عزاء لهم (كان بوذا أكثر وعيا بهذا، لأنه علمنا كيف نحرر أنفسنا منها)، مع أن هذا ليس ذا أهمية كبيرة. هذه مجرد خرافة تنضاف إلى الأخريات، وغير محتملة مثل غيرها من الخرافات، ومدعاة أكثر للسخافة، على الأقل عندنا أكثر مما هو ماثل عند غيرنا. كما لو أن الخوف يتملك بعضنا البعض، من أن نجد أنفسنا ضيوفا ضمن هذه الدرجة التي تستعصي على كل فهم!

رب معترض قد يعترض بأن العدم ليس أكثر وضوحا، وهذا ما نبدي اعتراضنا عليه (مع أن العدم فكرة مفتقرة، إلا أنها واضحة)، وليس أكثر احتمالا، وهذا ما نعترض عليه كذلك (مع أنه أكثر افتقارا، إلا أنه يسير الإنتاج، ومن ثمة فهو أكثر رجحانا بشكل يفوق كل ما هو مركب: (لا شيء أفقر من جثة هامدة، لا شيء أكثر احتمالا من الخلود)، وأخيرا ليس أكثر يقينا، وهذا ما أباركه عن طيب خاطر. الجثة لا تقوم دليلا على شيء ما، أو أنها لا تقوم دليلا سوى على نفسها. وأما ما قد يوجد بعد الموت، فلا أحد يعرف، ولا أحد يمكنه أن يعرف. إنه اللغز الأقصى، ضمن النطاق البشري على الأقل، العصي على كل اختراق – وإن كان الطابع السردي هو

الغالب عليه -بشكل يفوق اللغز الذي يكتنف الأصول. ولذلك يستحسن القبول به. وليس من شأن هذا، في كل الأحوال أن يجعلنا من الخالدين، ولا هو يبث في أنفسنا شعور الطمأنينة بما يكفي، حينما يحين الأجل، ولا هو يمثل خير عزاء لنا...فمن السهل أن نصطنع الشجاعة، طالما أن الخطب الجلل لم يدركنا بعد، ولو أن ذلك لا يغير من الأمر شيئا. هؤلاء الآباء الذين رزئوا في أحد أبنائهم توا، هذه الفتاة الصغيرة التي تجد نفسها حبل الفشل يطوقها على المدى القصير، فإن فكرة العدم لن تكون طوق نجاة لهم. تبقى مجرد فكرة، عندما يكون الخيال هو مصدر عذابهم، عندما تكون قلوبهم هي التي تنفطر. لا يوجد الموت فقط، ثمة الاحتضار، ثمة سكرة الموت؛ ومن المؤكد أنه لا يمكن القول إنه لا أثر لذلك. يقول **وودي آلن** (Woody Allen)[94]: «ليس الأمر أنني خائف من الموت، لكنني أفضل أن أكون في مكان آخر عندما يحين أوانه». أما ما يفعله الموت بنا، فلن نكون، ونحن لم نعد على قيد الحياة، من الشاهدين، لكنه لن يدرأ عنا قدر الموت، ولن يجنّبنا معاناته، ولا يحول ربما بينا وبين رؤية شبحه يحوم حولنا. الجسم يأباه كلّية، فكيف لنا أن نقبله؟ الاحتضار كفاح، وإن كان من نوع آخر، وغالبا ما يكون مؤلما في مطلق الأحوال. يعتبر آخر معركة خاسرة ضمن معترك الحياة. كيف لنا ألا يأخذنا الخوف ونأمن على أنفسنا من كل مكروه؟ نمنّي أنفسنا لو أننا في مكان آخر، لكن لا حيلة لنا في الأمر. فلا أحد يمكنه أن يموت

---

(94) - وودي آلن (1935)، واسمه الحقيقيي آلن ستيورات كونيغسبيرغ (Allan Stewart Konigsberg)، مخرج وممثل وكاتب سينمائي ومسرحي وعازف جاز أمريكي.

عوضا عنا، ولا أحد يمكنه أن يعاني نيابة عنا. أغبط أولئك الذين يأخذهم الموت غفلة وهم نائمون، وأولئك الذين لا يعيرون للموت، كما هو شأن للعدم، أي اهتمام يذكر. وأنا معجب بأولئك الذين يدنو منهم الموت، فإذا بهم يتلقونه بكل طمأنينة، وهدوء، وصفاء. أما بالنسبة لي، سأرى كيف لي أن أتعامل مع الأمر حينما يحين أجل ذلك، ولو أني لأعير لهذا الأمر اهتماما كبيرا. ألتمس لنفسي أسباب الفلاح في حياتي أكثر مما ألتمس الفلاح في موتي. من ذا كان حليفه الفشل في معترك الموت؟ ما من إنسان إلا وكان الموت وارده، سواء صالحا أو مسيئا. لا محالة أنها ستكون موجعة، لكن من غير المحتمل، أننا لن ندركها في نهاية المطاف.

في صيغة لطيفة يصفه ملارميه (Mallarmé)[95]:«ليس هذا المجرى الضحل الذي يجرفه مع كل شيء، سوى الموت...»، وهذا البيت الموزون وفق البحر الإسكندري[96] الكامل (مهما يكن، إن لم تخن الذاكرة، فهو عبارة عن نص نثري)، قد يكون من أفضل ما كتب في الموضوع، وهو في كل الأحوال الأقرب إلى الدقة. لطالما جعلنا من الموت أشبه بمحيط لا شطآن له، ولا نكون بذلك سوى كمن يضفي

---

(95) - ستيفان ملارميه (Stéphane Mallarmé) شاعر وناقد فرنسي (1842-1898)، يعتبر من أبرز رواد الشعر الرمزي، ومن رموز الحداثة الشعرية إلى جاب بودلير وأرثر رامبو وبول فاليري.

(96) - (alexandrin)، هو بحر من البحور الشعرية المستعملة في الشعر الفرنسي. تضم القصيدة المنظومة بواسطة هذا البحر مقطعين، وكل مقطع يتكون من ستة أبيات، ليكون مجموع ابيات القصيدة اثني عشر بيتا شعريا. وأصل هذا التسمية تعزى أول مرة إلى الشاعر لامبيرت لوتورت (Lambert le Tort) [عاش في الفترة الوسيطة، القرن 12] التي نظم ديوانه المسمى "رواية ألكسندر" (Roman d'Alexandre) وفقا هذا النظم.

عليه بعدا يفوق البعد الذي له. فليس هو عبارة عن مَرْبَع، وإنما هو مجرد مَعْبَر، وان كان معبرا في غاية الضيق. وليس هو من قبيل اللامتناهي، وإنما مجرد نهاية. ولا هو المحكّ الأسمى، وإنما المحكّ الأقصى. نترجّى بشأنه السماء أو الأطباء، ألا يدوم طويلا.

ليس ثمة الموت وحده. وليس ثمة الاحتضار فقط. ما هي سوى ظواهر خاصة (لا تمثل شأنا خاصا بالنسبة إلينا، وليس لذاتها) لمبدأ أكثر عمومية، وهو في الواقع ليس مبدأ بقدر ما هو واقع، أو هو بالأحرى يمثل نسيج كل الحقائق. ماذا؟ بشأن الصيرورة، بشأن الثبات، اندثار كوني لكل الأشياء-وربما ما عدا الكل. الحق كان بجانب **هراقليطس**[97] وليس بارمنيدس (على الأقل في وجه الصورة النمطية التي ترسخت لدينا عنه). لا نسبح في النهر مرتين، ولا مرة واحدة-فهو غير لابث على حاله. أصاب **مونتين** الحق في مقتل. كل شيء يتغير، كل شيء يتدفق، كل شيء يرتجّ: «العالم عبارة عن حركة اضطراب دائمة. كل الأشياء تدبّ في حركة دائمة: الأرض، وصخور القوقاز، وأهرامات مصر، وصولا إلى الاضطرابات العامة وما ينجم عنها. السكون نفسه ليس سوى حركة اضطراب تتسم بإيقاع غاية في البطء». الديمومة؟ الاستدامة؟ لا تستقيم إلا حالما يحدث التغيير، وليس لي إلا أن أقول إنها عبارة عن تغيير ما ينفكّ يتوالى. أن يكون كل كائن أحرص على

(97) -هيراقيليطس (Héraclite) هو أحد حكماء الإغريق (535-475 ق.م)، هو الذي قال بأحد العناصر الجوهرية التي تمثل أصل الوجود (عنصر النار)، وهو القائل أيضا بمبدأ تغير الوجود وصيرورته طبقا لقوله المأثور: "لا يمكن أن يسبح المرء في نفس النهر مرتين".

المثابرة في وجوده، هذا ما لا ريب فيه، وما من أحد يمكنه ذلك إلا كان أحرص الناس على التغيير المستمر والتكيّف الدائم. أن توجد يعني أن تدوم؛ وأن تدوم، يعني أن تتغير. وعليه فإن الوجود والصيرورة هما وجهان لعملة واحدة، تعبير عن شيء واحد، وهو على وجه التحديد ليس شيئا، وإنما مسار، تاريخ، وتغيير. ذلك المولود الحديث العهد بالولادة الذي كنته، أين هو؟ وأين هو شبابنا وحبنا الذي كانا لنا فيما مضى، والثلوج التي أرخت ببياضها ذات أمس؟ كأنها لم تكن بالمرة، ولن تكون مجددا. والذكريات نفسها قد تصبح عرضة للاندثار عاجلا أو آجلا. كأن العدم هو الثابت الذي لا يتزحزح أبدا. كلمة الفصل دائما ما تكون من نصيب الصمت. الحكمة المأساوية: حكمة الصيرورة، حكمة عدم البقاء. كل شيء سرمدي، ولنا عودة إلى هذا، لكن ما من شيء دائم سوى الموت. كل شيء يستمر، ولا شيء يعمّر.

وهذا ليس مدعاة للحسرة، أو أن هذا الغم أمارة قاطعة على عجزنا عن قبوله. وهل من سبيل أن نغير هذا القدر؟ نحن لا نعيش أقل منه، أو بالأحرى نعيش أطول منه (ماذا نتوقع من حياة ساكنة غير الملل، وما هي سوى صورة مسبقة للموت!). في هذا المقام نجد أبيقور، مونتين، سبينوزا. الحكمة هي أن نتأمل في الحياة، كما أفصح هذا الأخير، لا في الموت. إذا كتب علينا أن نتدبّر الموت بدوره، فإن هذا من أجل ما يعلمنا إياه عن الحياة وعن أنفسنا. فأن تجبل الحياة كلها على التناهي، والتغيّر، وعدم الدوام، فإن هذا يمس جوهرها، وهو أمر لا يمكن التغاضي عنه. وهذا حافز إضافي لكي نكرّس

للحياة-حياتنا، وحياة الآخرين-كل ما يلزمها من عناية. ما الذي يمكن أن يكون في غاية الهشاشة؟ ما الذي يمكن أن يكون أكثر قيمة؟ من ذا الذي يمكن أن نستغني عنه أكثر من غيره؟ لنحترس من كهنة العدم الذين لا يسعون من خلال يقين الموت، سوى أن ينفرونا من الحياة. وأن يكون لكل رحلة نهاية، فإنه ليس مانعا لنا أن نخوض غمارها. وأن يرتحل عنا الأحبة، ليس مدعاة لنا لكي نُعرض عن استمرار إبداء مشاعر المحبة لهم. وأن تكون الحياة في غاية القصر (وقد يطول أمدها في بعض الأحيان...)، ليس سببا وجيها لنحطّ من قدرها.

«كل قناعات البشر فانية»، كما كتب مونتين. وأن نحصّل هذا الرضا، بكل ما يحبل به من معنى، لهو أمر يخص كل واحد منا. هذه اللذة الحاضرة، هذه الفرحة الماثلة أمامنا، هذا الحب المعايش، لا حيلة للموت معها. هل ستكون كما لم تكن؟ لا ريب في الأمر، كشأن كل ما كان وكل ما لم يعد. بيد أن ذلك لا يقلل من قيمة اللذة والبهجة والمحبة شيء يذكر، بل إني أؤكد أن أهميتها القصوى تكمن رأسا في ندرتها، ومداها المقتضب سلفا، وتفرّدها. الموت هو القاعدة، الحياة هي الاستثناء منها. غير أن القاعدة لا يستقيم وجودها إلا من خلال الاستثناء الذي يمثّل تحديا لها من غير أن ينتهكها، الذي يزكيها من غير أن يفرط فيها. هذا الذي نعيشه، والذي سيسلبه الموت منا، لا يمكن له أن يمحيه بالمرة- لأننا نعيشه، ولأننا قد تأتى لنا أن نعيشها عيشة لا تبلى ولا تفنى. ما من نفس حية إلا والموت واردها، والموت من نصيبهم حصرا. الموت، من دونهم،

كأنها والعدم سيان. وهذا من شأنه أن يقطع الشك باليقين بأن الحياة هي التي تستحق، وهي التي تكتسي قيمة: الموت نفسه ليس له أهمية تذكر إلا بالنسبة إليها.

وهذا ما يثبت على أن العدميين على غير صواب، يلتمسون في الموت حجة على سداد رأيهم. كيف أمكن أن يكون هذا ممكنا؟ أن يكون الموت هو وضع حد للحياة، فإن هذا يعتبر تعريفًا له. لكن هذا ما يحول كذلك بينه وبين دحضها-لأنه يفترض وجودها.

(XII)

الخلود





الخلود

كل شيء يتغير، يتدفق، ينصرم. هذه حقيقة **هيراقليطس** (Panta rhei)[98]، أو بالأحرى حقيقة العالم. ولكن هذه الحقيقة لا تنصرم. «مع أن كل شيء محكوم بالتغير، كما أشار **مارسيل غونش**، لكن من غير أن يعتريه التغير. أن يكون التدفق من نصيب كل الأشياء، هو أمر صادق على الدَّوام». والصيرورة نفسها محكومة بالخلود: الصيرورة هي الخلود عينه. ولهذا الداعي بالذات لا إمكان لنا للخيار بين بارمنيدس وهيراقليطس: كلاهما على حق، ولو أن تصور كل منهما يعارض التصور الآخر. وحدة الأضداد هو ما يثبت سداد رأي هيراقليطس، وتفرّد الحقيقة هو ما يثبت سداد رأي بارمنيدس. هذا الضياء الذي يسطع نوره صباحا، وهذ العصفور الذي يغرد، ورياح النسيم البادرة هذه التي تلفح خدي...لا شيء من هذا كله يظل ثابتا لا يتزحزح، ولا شيء من هذا كله سيدوم لفترة طويلة. ليس هذا سوى حاضر العالم فقط: إنه العالم نفسه من حيث هو حاضر. تحوّل دائم. تجدد دائم. لكن ماذا كان يوجد قبل؟ حاضر آخر، أو بالأحرى نفسه («هو في جملته عبارة عن حلقة منتظمة» وفق

---

(98) -(Πάντα ῥεῖ) ، عبارة اغريقية تفيد حرفيا ما مفاده: "كل شيء يتدفق".

تعبير بارمنيدس) لكنه آخر، هو نفسه ولكنه مختلف. وماذا يتوقع أن يحدث بعد ذلك؟ حاضر آخر، أو بالأحرى استمرار يتميّز عن نفسه. كل شيء ينصرم، هذا مما لا ريب فيه، لكن ما من شيء ينصرم خارج الحاضر. فالماضي لم يعد له وجود، والمستقبل لم يتحقق وجوده بعد. فما كان؟ لم يعد له وجود. وما سيكون؟ لم يتحقق له الوجود بعد. لا يوجد سوى الوجود: لا يوجد سوى الحاضر. «لم يكن ولن يكون، بما أنه الآن...» هذه الجملة التي تنير دربنا منذ ما ينيف عن خمسة وعشرين قرنا، مثل قول **هيراقليطس** عن الوجود في جريان دائم[99]، يجب أن نأخذ بهما سوية. «كل شيء ينصرم، كما لوّح بذلك **مارسيل غونش**، من غير أن ينصرم الوجود: الآن الذي يميز الوجود هو فريد من نوعه». هب أن الوجود نفسه ينصرم، فما كان لشيء أن يكون، وما كنا لنشهد أي تغيير. فما عليه إلا أن يمضي قدما، وما نسميه الديمومة هي دائمة الحضور (والشيء الذي يجعلها تتميز عن الزمن المجرد، والذي ليس سوى مجرد المجموع المتخيّل من الماضي الذي لم يعد له وجود، والمستقبل الذي لم يحن أوان وجوده بعد)، وما نسميه الحاضر، هو دائم الاستمرار. كل شيء عرضة للتغير، ولكن لا شيء يتغير سوى في الحاضر. كل شيء حاضر، ولكن ما من شيء حاضر سوى الصيرورة. «الحركية، الانفلات، الوجود العرضي، مستمر للأبد» (هذا قول مارسيل غونش عن هيراقليطس). «ما هو حاضر ما فتئ يتغير، لكن حقيقة الحضور ذاتها لا يطرأ عليها أي تغيير» (هذا قول مارسيل غونش عن بارمينيدس). وهكذا يظل

Panta rhei- (99)

الحاضر حاضرا، وهو ما نسميه الوجود، وهو ما نسميه الخلود، ولا يوجد غيره. هذا هو النور الحقيقي الذي يسطع من حاضرة الاغريق. الأوسيا[100] (الوجود، الواقع)، الباروسيا[101] (الحضور): الواحد وظله! كتب **مارسيل غونش** «الوجود بمعية الحضور واحد». لن يكون ثمة وجود آخر، ولا حاضر آخر. حضور من؟ إنه حضور الوجود: لهذا السبب أثرت كتابة الكلمة بحرف كبير[102]، بشكل يعبّر عن اعتقاد المرء في وجود بعض الذوات، ومطلق ما متعال (الله). فكيف له أن يكون حاضرا إن لم يكن في العالم؟ وكيف له أن يكون متعاليا إن كان موجودا فيه؟ أو لن تكون بذلك عظمة الرب من طينة أخرى. فما عهدنا الأشياء العظيمة نفسها (الطبيعة، الكون)، سوى أنها مطبوعة بدوام الاختلاف، وأنها بلا ريب دائمة التغير، ولكن من غير أن تكف على أن تكون على ما هي عليه، هي الكل في الكل. فما جدوى البحث عن شيء آخر؟ وعقد الأمل على شيء آخر؟ يكفيني العالم: أنا على قناعة، قناعة ملؤها التواضع، بكل شيء.

بإمكاننا بالطبع أن نسمي هذا الكل، على غرار ما فعل سبينوزا، الله. وما جدوى ذلك، إن هو ليس بذات، ولا بخالق (كيف لمن كان

---

(100) - مفردة يونانية (οὐσία/Ousia)، مع أن سبونفيل جعلها تفيد الوجود والواقع، فإن هذا المدلول قد يصدق عند أحد أوجه تصريف المفهوم عند أفلاطون، وإن كان هذا الأخير صرّف مفردة "الأوسيا"، بنفس الدلالة التي عرفت بها واشتهرت لدى أرسطو، بما هي ترادف الجوهر أو الماهية.

(101) - مفردة يونانية (παρουσία/parousia)، تفيد الحضور، كما تفيد الحلول والظهور.

(102) - majuscule (Présence)

كلا، أن يخلق شيئا آخر؟)، إن لم يكن متعاليا، ومنزها عن الحب، ومن غير إرادة، من دون عناية، وإذا كان تقربنا إليه بالصلاة أو خوفنا منه لا يجدي نفعا؟ ليست وحدة الوجود، سوى نزعة طبيعية شنيعة أو ماكرة؛ وليست النزعة الطبيعية سوى نزوع نحو وحدة الوجود في صيغتها الراديكالية، المبددة للأوهام، والتي تزيل الغشاوة التي تحجب العقول. هذا مجرد اسم آخر للإلحاد، وهو اسمه الحقيقي. الملحد لا يؤمن بالله. فلماذا، حينما ينبغي أن يعرّف، يقتضي أن يعرف على نحو سلبي في صلته به؟

لا يعني هذا أنه لا يؤمن بأي شيء. وبما أنه يؤمن بما هو كائن فقط- فإنه يكون على إيمان بالكل وحده.

وهذا ما يجعل صدره منشرحا إلى معتقدات الآخرين، وهم أصلا جزء لا يتجزأ من هذا الكل، ولا شيء يمنع أن تكون معتقداتهم على تمام الصحة مثل ما يصدق على معتقده هو (فهو غير معصوم من الخطأ)، بل قد يتعلم منها الشيء الكثير عن معاني الإنسانية. ما يدعوه البشر الرب، هو أثمن ما يحوزونه في أنفسهم، («هو الذي يغمر أرجاء نفسي، كما كتبت **إيتي هيلسوم** (Etty Hillesum)، وهذه «النفس التي هي نفسي»، هذه الطبقة الأكثر عمقا وأكثر ثراء في ثنايا داخلي التي فيها مستقر كل شيء، هو ما أسميه "الله"»)، وبما أن هذا الأفضل لم يكن في متناولهم إلا من حيث هو وجود أجوف (بحكم الافتقار)، فما كان لهم إلا أن يتخيلوه، أن يحلموا به، أن يعبدوه من بعيد، وهو الذي يسطع نوره في دواخلهم، وإذا جاز

القول، بغيابه. الإنسان حيوان متدين، حالة روحية على أي حال: فهو لا يكتفي بمعرفة الحقيقة، أو البحث عنها، بل يجب عليه أن يحبها، أن يتأملها، أن يحضنها، وقد يعرض له في الواقع أن يضِّل عنها أو تنفلت منه، وهذ أمر مطلوب وجوده. أن نصلّي؟ إنه أشبه بوضع الكلمات على الصمت. والصمت يدوم، بمن يتضمن منه الكلمات كلها أو لا يتضمّنها.

الصمت: الخلود. إنه الشيء نفسه، بما أن الزمن لا وجود له سوى من أجل الفكر، وبما أنه لا يأخذ اتساقه الحقيقي وقوامه-وعلى نحو متجدد-إلا من خلال الكلمات التي تستخدم في سبيل التمكّن من أقنمته وقياسه. لا يوجد بالنسبة للطبيعة أو الصمت سوى الحاضر: لا يوجد سوى الواقع أو الحقيقة. هل هما الشيء ذاته؟ ليس تماما، فالواقع يتغير، لأنه يبدأ وينتهي، وهذا ما لا ينسحب على الحقيقة. لنضرب مثلا بالطائر الذي يحلق نحو أبعد مدى: فلن يقوى على الطيران دائما، ولن يعيش أبدا، ولن يتأتى له أن يعيد نفس الكرة أبدا. هذا ما أسميه الواقع أو الصيرورة. ولكن منذ متى كان هذا الطائر مقدرا عليه أنه سيعيش، وأنه سوف يحلق، وأن طيرانه هذا سيكون نحو أبعد مدى في تلك اللحظة؟ منذ عام؟ عشرة أعوام؟ ألف سنة؟ إنه يستحيل تحديد تاريخ: لطالما تم التسليم بهذا منذ الأزل، مع أنه لا أحد يعرف متى وأين. ليست الحقيقة بحاجة لكي تعرف لكي تكون صحيحة؛ بل يجب أن تكون، على نقيض ذلك، صحيحة لكي تكون معروفة.

هل وجب علينا أن نسلّم بأن كل الأشياء مقدرة سلفا؟ الأمر غير ذلك مطلقا. بذلك نكون كمن يصبغ على الحقيقة قوة سببية لا تحوزها بالمرة. لا لأنه كان مقدرا له منذ الأزل أنه سيحلق نحو أبعد مدى في هذه اللحظة، فإن الطائر لا محالة سيقدم على ذلك؛ بل على النقيض من ذلك، لأنه يقدم على هذا، في الهُنا والآن، فقد حقّ هذا منذ الأزل. الواقع يسوس الحق، وليس الحق هو الذي يسوس الواقع. فالخلود في صيغته القائمة سلفا يبقى لابثا على حاله. الحقيقة لا تبدأ: فإما هي دوما صحيحة، أو لم تكن كذلك أبدا.

والأمر نفسه يصدق على الخلود في صيغته القائمة قدما، ونعي بذلك في المستقبل. إلى متى يستقيم لنا أن هذا الطائر أدرك نصيبه من الحياة والطيران، وتأتى له أن يحلق إلى أبعد مدى على نحو ما كنا شاهدين على الأمر؟ وهذا أمر لا يخلو منه زمان، وقائم حتى الآن. وسيظل كذلك حقيقة قابلة أن تكون في غضون عام، في عشرة أعوام، وحتى في مقبل ألف سنة: فإما أنه كائن على وجه الحقيقة إلى الأبد، أو أنه لا يكون كذلك أبدا. وهذا ما يميز الحقيقة عن الواقع. الواقع يتغير وينصرم: نحن لا نسبح في النهر مرتين على وجه حقيقي. الحقيقة من جهتها لا هي تتغير ولا هي تنصرم. فمن سبح ولو مرة واحدة في النهر، فإنه سيظل حقا لا مجمجة فيه أبد الدهر.

والحق يقال إن المعرفة، وفق وجهة النظر هذه، تمثل جزءا من الواقع، وهي بذلك تتميّز عن الحقيقة. ثمة تاريخ للمعارف: فهي تبدأ، وتتطور، وتنمو، وأنها عرضة للزوال. لا يوجد تاريخ

للحقيقة. وليس بالإمكان أن توجد أي معرفة، وينجم عن ذلك أنه لا وجود لأي تاريخ للمعارف من دون خلود الحق الذي يجعلها ممكنة وضرورية.

وهل الخلود من نصيب الحقيقة وحدها؟ الأمر غير ذلك. فلو أن التغير يطال الواقع بلا ريب، إلا أن هذا التغير يعرض له حصرا في الحاضر. إذا كان الخلود، كما أراد له **القديس أغسطين**[103] أن يكون، هو الحاضر الذي لا ينفك عن الحضور، فإن الواقع يعبّر عن الخلود نفسه. وهذا ما آثر **القديس أغسطين** أن يسميه «يوم الرب الدائم»، وهو بالأحرى ما أوثر التعبير عنه بيوم العالم المستدام. الأمس لم يكن موجودا (عندما كان الأمس موجودا، لم يكن أمسا: بل كان يوما ينتسب إلى الحاضر). والغد لم يكن موجودا قطعا (عندما سيتأتى له الوجود، فلن يكون غدا: بل سيكون اليوم الذي ينتسب إلى حاضره). خلود الحاضر. لا دوام سوى للآن، لا دوام سوى لهذا المضارع. هذا ما أسميه الحاضر-الدائم للواقع، وهو الواقع عينه.

مع أن الحقيقة منزهة عن كل تغيير، إلا أنها مع ذلك حاضرة. أما بخصوص القضية التي تفترض حيازة الحق على نحو مسبق، فإنها لا تخلو من تناقض: فإن صح الأمر، فإنه على صحتها باق، وإن لم يكن كذلك، فإنه لن تكون على غير ذلك. أما بخصوص القضية التي

---

(103) - القديس أغسطين (**saint Augustin**)، فيلسوف ولاهوتي مسيحي من مواليد الجزائر (354-430 م)، كان على مذهب المانوية في البداية ليعتنق تعاليم المسيحية فيما بعد، ليعتبر من كبار علمائها وأحد أهم رواد الفكر السيكولائي في العصر الوسيط. ومن أبرز مؤلفاته كتاب "مدينة الله" وكتاب "الاعترافات"

تفترض حيازة الحق على نحو بعدي، فإنها لا تخلو من تناقض: فإن صدق ذلك في يوم من الأيام، فإنها كانت على هذا الحال قبل ذلك، فإن لم يكن الأمر كذلك، فإنه لن تكون على غير ذلك أبدا. ولذا فإن الحقيقة كلها حاضرة. وهذا ما أسميه بالحضور الدائم للحق، وهي الحقيقة عينها.

لا يحصل التمييز بين هذين الضربين من الخلود إلا ضمن الزمان (sub specie temporis)، وليس في الحاضر حيث يلتئمان ويصبحان على وجه واحد (sub specie aeternitatis). لنضرب مثلا بهذا العصفور الواقف على غصن الشجر: فإنه يعبر عن مظهر واقعي وحقيقي في الوقت نفسه. يمثل الحاضر نقطة تماس الواقع والحقيقة. وإذا كان الوجود يقتصر على الحاضر وحده، وهذا هو اعتقادي، وإذا كان الواقع والحقيقي متزامنين في الحاضر، فيجب أن نخلص إلى أنهما يتزامنان دوما، فيما يخص كل واقع معطى. والحاضر الذي يتضمن كليهما، هو مكان التئامهما-الشيء الذي يحول دون انفصالهما في يوم ما.

لا يسعنا إلا أن نقول، إن عنّ لنا أن نقول، بأن الحاضر هو ما يفصل الماضي عن المستقبل. وبما أن الماضي والمستقبل لا وجود لهما، فلا شيء يفصل بينهما. لا يوجد سوى الخلود، الذي هو الحاضر عينه. بين لا شيء ولا شيء[104]: يوجد الكل. وهو المكان الذي

(104) - يعني بذلك بين الماضي والمستقبل وهما –في نظره- أشبه باللاشيء أو العدم، يوجد الكل الذي هو الحاضر.

نعيش فيه، والموضع الوحيد للخلاص.

أفصح **سبينوزا** في كتاب الأخلاق عما يلي: «نشعر ونمتحن أنفسنا كما لو أننا كائنات خالدة». ليس لأننا سنكون (وإلا سيتحول إلى مجرد موضوع للرجاء أو الإيمان)، بل لأننا كذلك. لقد مررت بهذه التجربة وخبرت أمرها في بعض الأحيان. لم أر فيها دليلا يقوم على شيء مهما كان. لكن من غير أن ننفي دور هذا في فك ارتباطي بكل شيء آخر بشكل نهائي، وبالأخص مع تلك التي لا تمضي على النحو المرغوب فيه. السعادة، التعاسة، القلق، اللهو، العمل، التعب، الامتعاض، الغضب...وكلها من صلب الواقع أيضا، كما هي من صميم الحقيقة كذلك؛ بحكم أنه لا يوجد شيء خارجها. نتموضع بالفعل في خضم المطلق، بالفعل في المملكة: مملكة الخلود، الذي هو الآن.

أحَصَل حفظها بالفعل؟ أو قُدّر ضياعها بالفعل؟ فالأمر سيان. الجحيم والجنة هما شيء واحد، وهو العالم. «طالما تحرص على أن تجعل الفرق قائما بين النيرفانا[105] والسامسارا[106]، كما أفصح **ناغارجونا**[107]، وإلا ستجد نفسك لامحالة في السامسارا». طالما

---

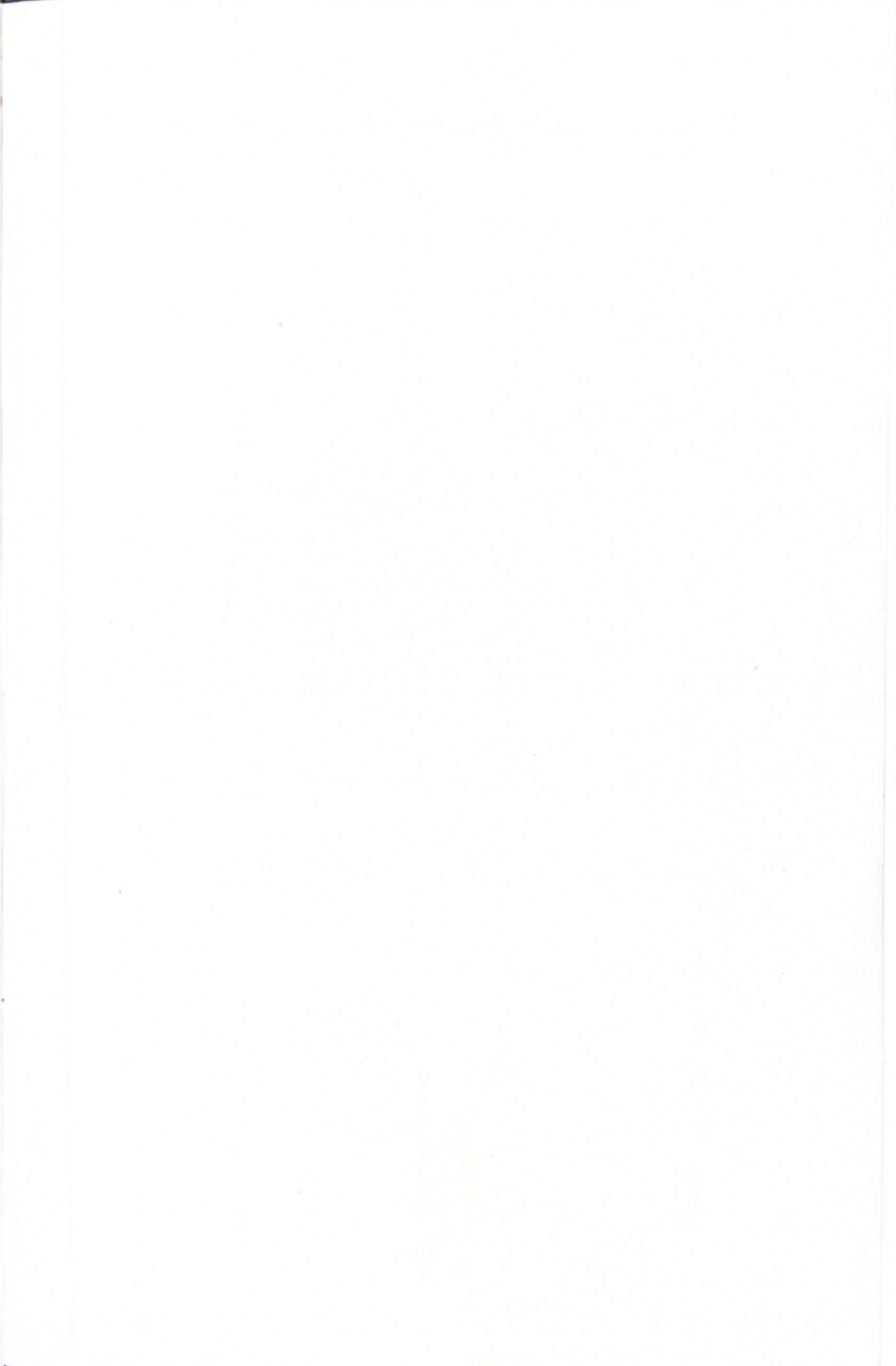
(105) - النيرفانا (nirvâna)، هو مفهوم عُهد في الديانات الهندية، وهو يفيد السكينة وحدوث الخلاص والتحرر من دورة الحياة المتكررة التي تميز السامسارا.

(106)-السامسارا (samsâra)، وتحيل في البوذية على دورة الميلاد وما ينجم عنها من انحلال وموت. وبما أنها ترمز إلى المعاناة، فإنها تمثل الوجه النقيض للنيرفانا.

(107) - هو معلم وفيلسوف وراهب بوذي، عاش بين القرن الثاني والثالث الميلادي، ويعزى إليه تأسيس مدرسة الطريق الوسطى أو ما يعرف بالمادهايميكا (Madhyamika).

تحدث فرقا بين الخلاص وبين حياتك على نحو ما هي – بنُقصها، وألمها، وعدم الرضا بها– فاعلم أنك في قلب الحياة على نحو ماهي. طالما أنك تجعل الفرق قائما بين الخلود والزمن، فإنك واجد نفسك لا محالة في جوف الزمن. فما علينا إذن إلا أن نكف عن الحلم بالخلاص، بالحكمة، بالتحرر. الخلود ليس بحياة بديلة، وإنما هو حقيقتها. وليس آية على عالم آخر، وإنما العالم في صورة الفعل. وهذا هو السبب الذي جعلني أتحدث في بعض الأحيان بنبرة تشي بحكمة اليأس، والتي ستنقلب إلى نعمة في حد ذاتها. هل ثمة ما يوحي بالعبث أكثر من أن نجعل الخلود موضع الرجاء؟ هل ثمة ما يبعث على الحزن أكثر من أن نجعل السعادة موضع الرجاء؟ لكن ميزة هذا أنه يشير إلى المسار أكثر من إشارته إلى نقطة الوصول، حيث نوجد بالفعل. الحق يقال إن الحكمة لا محل لها من الوجود: ليس ثمة سوى الحياة البشرية، كما هي، على نحو ما هي تنصرف وتنصرم، منفتحة على كل من يفتح لها ذارعيه ويحتضنها، وعلى كل من يحومون حولها، دائمة الحضور، عابرة على الدوام، تغمرها الهشاشة وتشتد بها الوحدة (ولو تعلق الأمر بالحب–وخاصة في الحب!)، وأخيرا يمكن القول إن روح الشجاعة لا تكاد تخطئ أحدا، رغم الخوف والوهن. من هم الحكماء؟ هم أولئك الذين يجعلون الرضى بالحياة مذهبا لهم، وأعني أنهم يجعلونها موئل سعادة لهم، من غير أن يكفوا أنفسهم عن السعي نحو تغييرها–ولأن التغيّر أصلا من طبعها، ولأن الحياة نفسها ليس بشيء آخر، سوى صيرورة تغيير متواصلة. ما من إنسان إلا وتجد لديه لحظات الحكمة، وما من إنسان، أو لدى معظمهم، إلا

وتنتابه لحظات الجنون... يقبلها الحكيم بكل طمأنينة. فالبشرية، كما يقول، على أهمية أكبر من الحكمة.





الحياة الإنسانية

LA VIE HUMAINE

«كل قناعات البشر فانية»، كما كتب مونتين. وأن نحصّل هذا الرضا، بكل ما يحبل به من معنى، لهو أمر يخص كل واحد منا. هذه اللذة الحاضرة، هذه الفرحة الماثلة أمامنا، هذا الحب المعايش، لا حيلة للموت معها. هل ستكون كما لم تكن؟ لاريب في الأمر، كشأن كل ما كان وكل ما لم يعد. بيد أن ذلك لا يقلل من قيمة اللذة والبهجة والمحبة شيء يذكر، بل إني أؤكد أن أهميتها القصوى تكمن رأسا في ندرتها، ومداها المقتضب سلفا، وتفرّدها. الموت هو القاعدة، الحياة هي الاستثناء منها. غير أن القاعدة لا يستقيم وجودها إلا من خلال الاستثناء الذي يمثّل تحديا لها من غير أن ينتهكها، الذي يزكيها من غير أن يفرط فيها. هذا الذي نعيشُه، والذي سيسلبه الموت منا، لا يمكن له أن يمحيه بالمرة- لأننا نعيشه، ولأننا قد تأتى لنا أن نعيشها عيشة لا تبلى ولا تفنى. ما من نفس حية إلا والموت واردها، والموت من نصيبهم حصرا. الموت، من دونهم، كأنها والعدم سيان. وهذا من شأنه أن يقطع الشك باليقين بأن الحياة هي التي تستحق، وهي التي تكتسي قيمة: الموت نفسه ليس له أهمية تذكر إلا بالنسبة إليها.


WWW.PAGE7.COM
ISBN 978-603-91820-1-6
9 786039 182016
Designed by Maher Adnan

